

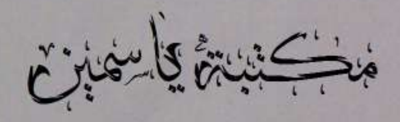
دوء يَك
روعة سنبل
مكتبة ياسمين
قِصَصْ

تزوّجتُ أغنية، فعلتُ هذا سرّاً منذ خمسة أعوامٍ تقريباً.

حين سمعتُها كانت الشمس تميل إلى الغروب، وكنتُ في فسحةٍ سماويةٍ لبيتٍ قديمٍ جدرانُه بلون الحليب، عرفتُ منذ أوّل إيقاع أنّها هي، أغنية عمري، تردّدتُ قليلاً فقط، ولأنّني لم أسمع من قبل عن حُكْمٍ شرعيٍّ، أو سببٍ أخلاقيٍّ يمنعُ أن تتزوّجَ امرأةٌ بأغنية، حسمتُ أمري وتزوّجتُها.

كلّ ليلةٍ أضع سمّاعتين في أذنيّ، يغنّي ياس خضر لي "حن وآنا أحن"، أضبطُ ارتعاشاتِ روحي مع ارتجافاتِ اللّحنِ العراقيّ الحزين، وأشربُ صوتَ ياس عبر مسامي كلّها، تكوي الأغنيةُ قلبي، فيذوب، ويسيلُ دموعاً، وقطراتِ مطر، وحبّاتِ ندى، ثمّ تلِجُ رحمي برفقٍ، فأُنجبُ فراشاتٍ، وزرازير، وزهراتِ نرجس.

أبتسم قبل أن أنام، وتبتسم معي نساءٌ كثيرات، لا أعرفهنّ ربّما، لكنّني أعرف أنّهنّ مثلي، قد تحييهنّ أغنية، وقد تقتلهنّ أغنية.



t.me/yasmeenbook

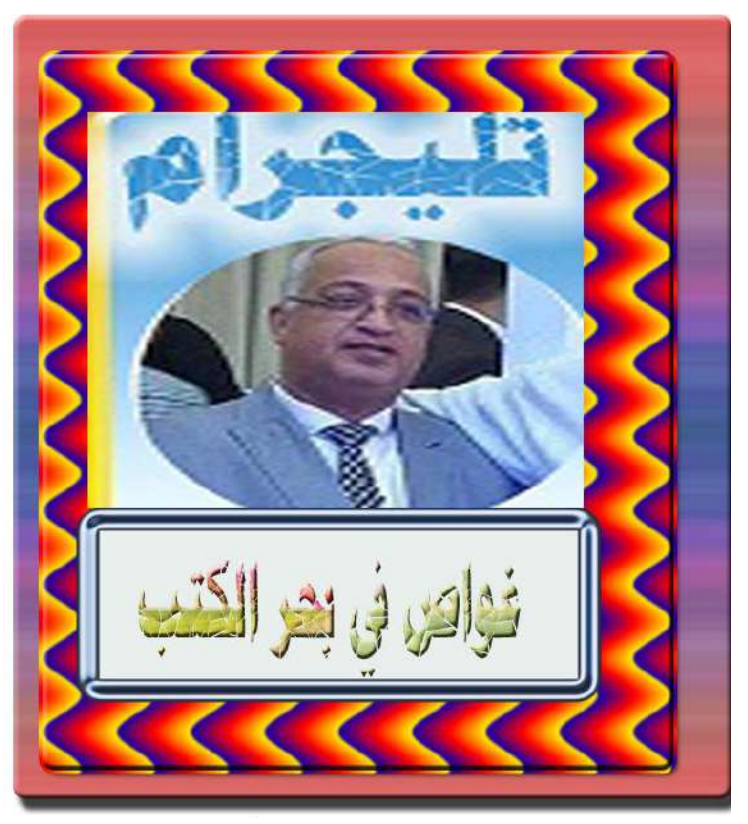




9 789933 701116

روعة سنبل

دُو، يَك





دُو، يَك - مجموعة قصصيّة

تأليف: روعة سنبل

تصميم الغلاف: قهوة غرافيكس

ISBN: 6 - 11 - 701 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2023

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة، مركز الأعمال.

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH   fb.com /Adwan.Publishing.House

تم إنجاز هذا المشروع بمنحة من مؤسسة اتجاهات - ثقافة مستقلة، وتم نشر الكتاب بدعم من دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع.

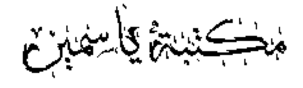
المحتويات


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

الإهداء

إلى سوزانا:

ها أنا مرّة أخرى أفشل في الكتابة عنكِ، بعضُ الخساراتِ يا صديقتي لا تُكتَب.




تليجرام
هنا
سور الأزبكية

مدخل أوّل:

ولستُ سوى رميةِ النّردِ

ما بينَ مفترسٍ وفريسةْ

ربحتُ مزيداً منَ الصّحو

لا لأكونَ سعيداً بليلتيَ المقمرةْ

بل لكي أشهدَ المجزرةْ

لاعبُ النّرد– محمود درويش

مدخلٌ ثانٍ:

من أجل أن تعيش، ينبغي أن تجعلَ نفسَك تموت، ولهذا استسلم كثيرون، لأنّهم مهما ناضلوا بشدة، فإنّهم يعرفون أنّ الخسارة أمرٌ محتوم.

في بلاد الأشياء الأخيرة- بول أوستر

القسم الأول

ذاكرة

أحدُهم يحاولُ أن يخبرَنا شيئاً

رسائلُ سريّة مشفّرة ظلّت تصل إليّ لشهور، لم أكن أستلمها في مغلّفاتٍ معطّرةٍ أجدُها تحت سجّادة عتبة بيتي، فألتقطها خفيةً لأقرأها وحْدي، ولم تكن رسائل (واتس أب) تصل إليّ بنغمةِ إشعارٍ يرتجفُ لها قلبي لهفةً. ظلّت الرّسائل تصل، لكنْ بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً، فزوجي هو الذي كان يحملها إلى البيت بنفسه، كلّ ثلاثة أيّام، بدون أن يدري.

اكتشفتُ أوّل رسالةٍ مصادفةً؛ أحضر زوجي يومَها حصّتنا الحكوميّة نصفَ الأسبوعيّة من الخبز، أخرجتُ الأرغفة السّاخنة من الكيس الرّقيق، ووزّعتها على الطّاولة كي لا تلتصق ببعضها، وريثما تبرد شربْنا القهوة معاً بدون أن نتبادل كلمة، فعَينا زوجي كانتا معلّقتين بشاشة هاتفه، يتابع كالعادة نشرة الأخبار الصباحيّة عبر سمّاعتين محشورتين في أذنَيه، بينما أكتفي بمتابعةِ تعابيرِ وجهه، فأنا ممنوعةٌ منذ عامين عن النّشرات والتّقارير الإخباريّة، في محاولةٍ لانتشالي ممّا سمّاه الطّبيبُ اكتئاباً مزمناً.

خرج زوجي إلى عمله، وعدتُ أنا إلى المطبخ، رحتُ أفتح كلَّ رغيفٍ إلى فلقتَين، كما أفعل دوماً، فلقةٌ هي الوجه الأكثر بياضاً، الذي

يصلحُ لأحضّر منه (ساندويتشات) لأطفالي، والأخرى هي وجهٌ أسمك قليلاً، مشقّق غالباً، وتبدو عليه دوماً آثارٌ بنيّة اللّون، داكنة، أو باهتة، من تلك الآثار التي تتركها النّار عادة على العجين، كنتُ أهمُّ بوضع الأرغفة في الكيس لأحفظَها في الثّلاجة، حين لمحتُ على الوجه المشقّق لأحد الأرغفة شيئاً جعلني أجفل، فبين العلامات البُنيّة، المتوزّعة على الرّغيف، استطعتُ أن أميّز اسمي، كانتِ الأحرفُ مضطربةً، كأنّ أصابعَ مرتجفةً متعجّلةً قد كتبتْها، سحبتُ رغيفاً آخر، ثمّ آخر، وآخر، ومع أنّ الاسم لم يكن واضحاً تماماً، لكنّني استطعتُ -وعلى كلّ الأرغفة- العثورَ عليه كما يعثر المؤمنون على كلمة «الله» في سماءٍ غائمةٍ، أو داخل ثمرة رمّان.

حين كنّا نتناول غداءنا، كدتُ، أكثر من مرّة، أن أخبر زوجي بما رأيتُه، لكنّني أقنعتُ نفسي بأنّ الأمر كلّه مجرّد مصادفةٍ غريبةٍ، فاخترتُ الصّمت، واكتفيتُ بمراقبتِه هو وأطفالي، يقسمون أرغفةَ الخبزِ ويلتهمونها بشهيّة.

انتظرتُ بفارغِ الصّبرِ، ثلاثةَ أيّام، موعدَ حصولِنا على حصّتنا التّالية من الخبز، لم أعثر على اسمي هذه المرّة، لكنّني، على الأرغفة كلّها؛ رأيتُ قلوباً صغيرةً بُنيّةَ اللّون، وحين كنتُ وأمّي نشرب القهوة في شرفتي أعطيتُها رغيفاً، وطلبت منها أن تتفحّصه، عرفتُ من ملامِحها الحياديّة أنّها لم تميّز شيئاً، «قلوبٌ مشوّهة محترقة». قلتُ بخوفٍ، وأنا أشير بأصابع مرتجفة إلى الأشكال البُنيّة المنقوشة على الرّغيف، وحين بدا لي أنّ أمّي استطاعت تمييزَها، اقتربتُ منها، وهمستُ بحذر: «أعتقد أنّها رسائل مشفّرة، أحدُهم يحاولُ أن يخبرَنا شيئاً». تجهّم وجهُ أمّي، وحين كانت تودّعني لتذهبَ إلى بيتها احتضنتْني، وبلطفٍ سألتْني إن كنتُ أتناول أدويتي بانتظام، السّؤالُ نفسُه همسَ به زوجي بقلقٍ في الأسبوع التّالي، حين كنتُ أتحسّس عنقي

بخوف، وأشير إلى مشانق تتأرجح في أربعة عشر رغيفاً من الخبز وزّعتُها على الطّاولة صباحاً.

تعاقبتِ الأيّامُ والأرغفة، وبنظرةٍ واحدةٍ، صرتُ حين أحملُ أيّ رغيف، أستطيع قراءة الإشاراتِ والرّموز كما تقرأ عرّافةٌ خطوط الكفّ، ثمّ أنسخ الرّسائل المشفّرة على دفترٍ صغيرٍ، وأكتفي بالصّمت.

رؤوسٌ مقطوعةٌ لها عيونٌ متّسعةٌ بذعر، تلالٌ من الرّماد، ومقصّاتٌ وسكاكين، ووجوهُ جلّادين، وشاهداتُ قبورٍ، وفزّاعاتُ عصافير، وشموسٌ مُطفأة، وعناكبُ سوداء بسيقانٍ مُشعرة، وفراشاتٌ بأجنحةٍ مقصوصة، ملأتْ هذه الرّموز وغيرُها أرغفتي ودفتري، بدتْ كنداءاتِ استغاثةٍ، أراها في كلّ شيء حولي، تسكن صرخاتُها رأسي، وحين أنام تحتلّ كوابيسي. أهملتُ نفسي، وزوجي، وأطفالي، عافت نفسي الطّعامَ والحياة، اضطربتْ ذاكرتي، واختبأتُ خلف صمتي.

- «ليست هلاوس، أحدُهم يحاولُ أن يخبرَنا شيئاً». قلتُ، فكتب الطّبيب لي قائمةً من المنوّمات والمهدّئات، طلب من زوجي إحضارَها.

- «لستُ ممسوسةً بجنّ، أحدُهم يحاولُ أن يخبرَنا شيئاً». قلتُ، فأشعل الشّيخ البخور، وتلا آياتٍ من القرآن، ثمّ كتبَ أدعيةً وأذكاراً، أمرَ أمّي بتلاوتها فوق رأسي كلّ ليلة.

- «يجب أن تساعدي نفسَكِ». قال زوجي صباحاً بحنان، ثمّ وضع جانباً لقمةً كان يحاول إقناعي بأكلها، هزّ رأسَه بأسى، وخرج إلى عمله.

- «يجب أن تساعدي نفسَكِ». قالت أمّي بتوسّلٍ بعد أن أوصلتْ أطفالي إلى باص المدرسة، ثمّ أعطتني أدويتي وأعادتني إلى فراشي.

لا أدري كم مضى من الوقت، لكنّني كنتُ نصفَ نائمةٍ حين قرّرتُ أن أستمعَ إلى نصيحتِهما وأساعدَ نفسي، غادرتُ فراشي بصعوبة، غافلتُ أمّي الواقفة في المطبخ، وخرجتُ من البيتِ بثوب نوم، وشعرٍ منكوش، وقدمين حافيتين، ركضتُ بوهنٍ نحو الطّرف الآخر من الحيّ، تجاهلتُ كلّ الذين ضحكوا، وكلّ الذين خافوا، وكلّ الذين قالوا عنّي: مجنونة، وصلتُ إلى الفرن، تجاوزتُ المتجمّعين أمام نافذةِ البيع، اتّجهتُ نحو الباب الخلفيِّ ودخلت.

- أين هو؟

صرختُ بجنون، وأنا أتلفّتُ حولي، بدهشةٍ حملقَ بي عاملان ملطّخان بالطّحين، ملأتْ رائحةُ الخميرة أنفي، وناداني وهجُ النّار، لفح وجهي وأطرافي، فَسَرتِ القوّةُ في جسدي، تخلّصتُ من الأذرع التي تشبّثتْ بي، وقذفتُ نفسي في اللّهب، أغمضتُ عينيّ بارتياح، واستسلمتُ ككتلةٍ رخوةٍ من عجين.

جسدي المتفحّمُ مسجّى منذ زمنٍ تحت التّراب؛ أمّا روحي، فما تزال مضطربةً، تتخبّط هنا في الفرن، داخل بيت النّار، الآن فقط عرفت كلّ شيءٍ، وتذكّرتُ كلّ شيءٍ، الآن فقط صرتُ شجاعةً بما يكفي، أريدُ أن أحكي، أن أصرخ، لكنْ لا صوت لي.

أخمشُ عجينكم بأظافري، أخربِشُ على أرغفتكم، أحاولُ أن أخبرَكم بكلّ ما أعرفه، أحاول، أحاول..

الرّأسُ على الرّأس

– لسّا ما خلصتِ؟ والله إنّك نايطة كتير، الله يعين الرّجّال يلي رح ياخدك ويبتلي فيكِ.

قالت جدّتي، وقد فتحتْ باب المطبخ، فقط بالقدر الذي يسمح لسحابةٍ نحيلةٍ من بخار الطّبخ بالدّخول، ويسمح لها هي بمدّ رأسها إلى غرفة الجلوس، بينما بقيّة جسدها السّبعينيّ في المطبخ.

قالت جملتَها بتذمّرٍ حين رأتني ما أزال جالسةً في المكان نفسه على الأريكة، الصّينيّة في حضني، وباقة البقدونس في يدي، لم أنطق بكلمة، ابتسمتُ فقط بصعوبةٍ ابتسامةً صغيرةً مرتبكةً، وحين سحبتْ جدّتي رأسَها إلى داخل المطبخ، وأغلقتِ الباب خلفها، تنفّستُ الصّعداء، ورحتُ بيدين مرتجفتَين أكمل مهمّتي الشّاقّة في استبعاد العروق الصفراء الذّابلة، لمَ أصفُها بالشاقّة؟ لأنّ كلّ شيء يصبح كذلك في بيت جدّتي، لكلّ عملٍ من أعمال المنزل مهما كان بسيطاً قوانينُ محدّدة، وطقوسٌ متوارثة.

– يُوووهْ، شكيتِك لواحِدْ أَخَدْ يا بْنَيتي، هيك بيمسكو البقدونس!

صاحت جدّتي مستنكرةً حين دخلتِ الغرفة بعد خمس دقائق، أخذتْ

باقة البقدونس من يدي، رتّبتْها قليلاً، ثمّ ناولتْني إيّاها من جديد، طلبتْ منّي أنْ أمسكها بيسراي، وأن أسحب منها العروق الصفراء بيمناي، ثمّ عدّلتْ لي وضعيّة ذراعي اليسرى، لتصبح باقة البقدونس قريبةً من صدري، رأسُها مائلٌ جهة قلبي، فعلتْ هذا، وهي تتابع تأنيبي، وتخبرني بأنّها في مثل عمري، في الخامسة والعشرين، كانت أمّاً لعشرة أبناء.

– خلّيني ساكتة أحسن شي، بس والله مو الحق عليكِ، الحق على أمّك يَلّي ما علّمتِكْ الأصول.

قالت بأسفٍ قبل أن تغادر إلى المطبخ، ابتلعتُ غيظي، ولم أفلح هذه المرّة في رسمِ ابتسامةٍ، شعرتُ بحرارةٍ في وجهي، فأدركتُ أنّ خدّيّ قد اصطبغا بالحمرة، الحمرة نفسِها التي ورثتُها عنها، والتي لم تستطع سنواتُها السّبعون أن تسرقها من وجهها الأبيض المزدحم بالأخاديد والتّجاعيد.

انهمكتُ في عملي من جديد بيدٍ متخشّبةٍ بالوضعيّة التي فرضتْها جدّتي، ولم تمضِ سوى بضع دقائق، حتّى دخلتْ من جديد، اتّجهتْ نحوي، وهي تجفّف يديها بمريول المطبخ المربوط على خصرها، بسبّابتها رفعتْ نحو عينيها نظّارتها العالقة عند أرنبةِ أنفها، وصاحت بصبرٍ نافدٍ، وهي ترى العروق المتشابكة بفوضى في يدي:

– آآخ يا راسي على هالشّوفة، هاتي البقدونس من إيدك، وتعي ورايي.

خطفتْ بسرعة الباقة والصّينيّة، واتّجهتْ إلى المطبخ.

تبعتُها بخطواتٍ مرتبكةٍ، وضعتِ الباقة على الرّخام قرب حوض الجلي، بعثرتْ عروق البقدونس بنزَق، وأخذتْ تعيد ترتيبها. «تفرّجي وتعلّمي». قالت، وهي تعمل بتأنٍّ، ثمّ راحت تشرح شيئاً عن الفرق بين

أصول ترتيب البقدونس والكزبرة، فلا بدّ عند ترتيب باقة الكزبرة من وضع العروق الخضراء فوق بعضها، الذّنَب على الذّنَب، ثمّ تابعت، وهي تهزّ باقة البقدونس أمام وجهي:

– أمّا البقدونس، هيك... الراس ع الراس، شايفة كيف؟ الراااس ع الراس.

بعدها بسنوات تزوّجتُ، صرتُ ربّة منزل، لا أشبه جدّتي بشيء، لا قوانين، ولا طقوس، أرتّب باقاتِ البقدونس والكزبرة بسرعة، وأنا واقفةٌ في المطبخ، أفعل هذا كيفما اتّفق، رؤوس، أذناب، لا فرق أبداً. أبتسم عندما أفكّر في جدّتي، أعرف أنّها لو كانت معي في مطبخي، لصفعتْ خدّها، وندبتْ حظّها، ولصار لديها سببٌ إضافيٌّ لتلعن هذا الزّمان، زماننا الذي اختلطتْ فيه الرّؤوس بالأذناب.

إلى البيتِ الكبير دخل الرّجال يحملون الصّندوق، بضعة رجال فقط، فكثيرٌ من الأبناء والأحفاد غائبون، التهمتْهم عجافُ الحرب العشر، أو ركلتْهم بعيداً خارج البلاد، على طاولة المنتصف في صالة الضّيوف الواسعة وسط المنزل، وضعوا الصّندوق الكبير، فتحوه، ثمّ غادروا مسرعين.

بضعُ نساء، أحنى الحزنُ ظهورهنّ، اقتربْنَ بوجلٍ من الصّندوق بعد رحيل الرّجال، توقّفن، وأفسحنَ المجال لتتقدّم أختُ جدّتي، الخالة العجوز التي جاءت بها فجراً من عمّان سيّارةٌ مسرعةٌ. بأصابع مرتجفةٍ

حلّتِ العجوزُ الحبلَ المربوط، وبكفّين متهيّبتين أبعدتْ أطراف القماش الأسود، ثمّ رفعتِ الآخر الأبيض، فانكشف وجه جدّتي الثّمانينيّ، بصمتٍ انسكبتْ دموع الخالة، ومن حولها علا النّواح، بدت جدّتي غافيةً بسلام، كأنّ شيئاً لم يتغيّر سوى الحمرةِ التي غادرت خدّيها فبدت صفراء ذابلة.

الوقت ضيّق، الباكيات حولها كثيرات، صوت القرآن يسكب برودةً غريبةً في قلبي، والسّيّارة تنتظرها في الأسفل، بصعوبةٍ استطعتُ أن أشقّ طريقي نحوها، أرحتُ كفّي المرتجفة فوق صدرها السّاكن، قبّلتُ وجهَها البارد، ثمّ وضعتُ رأسي على رأسها، الجبهةُ مستندةٌ إلى الجبهة، والخدّ ملاصقٌ للخدّ، همستُ وأنا أبكي:

- الراس ع الراس يا ستّي، شايفة كيف؟ الرااااس ع الراس.



حكاياتٌ لجدّتي

أصرّت جدّتي على دعوة أختِها الثّمانينيّة المقيمة في عمّان لتقضي رمضان معها، ولم يكن سهلاً إقناع الخالة الخائفة من زيارة دمشق، والمنقطعة عنها منذ سنوات، لكنّ جدّتي نجحتْ أخيراً وأقنعتْها -كما أقنعنا جميعاً أنفسنا- بأنّ الأمور استقرّت.

- ألف الحمد لله، والله ما عدْنا شِفْنا بالشّام دخّان أسود، ولا عدْنا سمعْنا صوات دَج.

أقسمتْ جدّتي مراراً، فقبِلتِ الخالة الدعوة أخيراً، وكان لا بدّ من وجود إحدانا، نحن صبايا العائلة، لإعانة جدّتي في إكرام الضّيفة، ولأنّني كبرى الحفيدات، وأقربهنّ إلى قلب جدّتي، فقد وقع الاختيار عليّ من بين أكثر من عشر شابّات.

بصراحة، وإن أردتُ التزام الصّدق، فقد كان السّببان السّابقان من افتراضي؛ أمّا الحقيقة، فقد اكتشفتُها لاحقاً حين انتقلتُ إلى بيت جدّتي قبل رمضان بأسبوع؛ إذْ لم تكن جدّتي قد فكّرتْ ولو للحظة بطلب مساعدتي، منعتْها سمعتي السّيئة التي ذاع صيتها عائليّاً، بسبب بلادتي في إنجاز أعمال

المنزل، وجهلي شبه التّام بأصول الطّبخ التي تفخر بها الشّاميّات ويتوارثْنها جيلاً بعد جيل، وفي المرّات كلّها التي اقتُرِح فيها اسمي كانت جدّتي ترفع حاجبيها القصيرَين، وتهزّ سبّابتها الثّخينة، لكنّ جملةً سحريّةً بدّلت رأيها، جملة أجمعتْ عليها خالاتي الأربع، واثنتان من زوجات أخوالي: «بس واللهِ حكاياتها حلوة».

وهكذا اختارتني جدّتي، وكي لا أحرجَها أمام ضيفتها، قرّرتْ أن تخضعني لدروسٍ مكثّفةٍ في التّدبير المنزلي، تبدأ لحظةَ عودتي من عملي في الصّيدليّة، ولا تنتهي إلّا حين أخرج إلى دوامي في الصّباح التّالي، لم أنشغل كثيراً بدروسها، بل انشغلتُ بعملٍ يشبه عملَ مندوبي المبيعات، فكما يستعرض المندوب عيّناتٍ من بضاعته، رحتُ أسرد لجدّتي كلّ يوم، بصيغةٍ موجَزةٍ ومشوّقةٍ، بعض الحكايات التي أصادفها في عملي، وكما يجرّب المندوب منتجاتِه ويدرس تأثيراتها، كنتُ أغيّر أنماط حكاياتي، وأنا أراقب بانتباهٍ تعابير وجهها.

مع وصول الخالة والشّهر الكريم كنتُ مدركةً تماماً للمَهمّة التي اصطُفيتُ لها: (راديو) لتسلية الأختين، أو ربّما (شهرزاد)، لكنّها هذه المرّة ستروي الحكاياتِ حتّى الغروب، تحديداً في ذلك الوقت الذي تقف فيه المرأتان في المطبخ، وقد أنهك الصّيامُ جسدَيهما، وجفّف حلقَيهما.

وهذا ما كان طوال الشّهر، أعود من عملي قرابة العصر، فأبدّل ثيابي وأدخل المطبخ، لتوكِل إليّ جدّتي أعمالاً سخيفةً، مثل: تحريك اللّبن مع النّشاء على النّار، أو تقطيع حبّاتٍ من الفجل.

يمضي بعض الوقت فتقول جدّتي: «احكي لخالة نَجميّة عن الصّبية

التلاتينيّة المرضعة، يَلّي إجاها هداك المرض بصدرها». تمسح الخالة على جسدِها بخوفٍ وتقول بلَوْعة: «سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم، يا قلبي عليها، هاتي لنسمع، احكي». أسرد القصّة، وأتقصّد التّمهّلَ عند بعض التّفاصيل، مثل التّسطّح الموحِش، والجلد المنكمش، وآثارِ غرزات الجراحة التي حلّت كلّها محلّ الثّدي الفتيّ، ثمّ أصف استكانة الشّابة حين كنتُ أساعدها على ارتداء ثديٍ اصطناعيٍّ، وحسرتها، وهي تخبرني عن حليبٍ كان يفيض من ثديها الطّافح؛ أرى الدّموع في عينَي الخالة الطّيّبة، فأشفق عليها وأخبرها أنّ الرّضيع جميلٌ، وأنّ الشّابة تتعافى، فتتنهّد بارتياح، ثمّ تتولّى جدّتي مهمّة ختمِ قصّتي فتقول: «الحمد لله على نعمة العافية». وتجيب الخالة: «إي والله يا أختي، الحمد لله».

تنهمك المرأتان بتحضير أقراص الكبّة، أو حشو حبّات الكوسا والباذنجان، تعملان بسرعةٍ ومهارةٍ، على الرغم من أصابعهما الثّخينة، وأكفّهما المرتجفة، وبعد وقتٍ تقدّره جدّتي تبتسم ابتسامةً ذات معنى وتقول: «احكي لنا قصّة الختيار، جارك بالصّيدليّة، يلّي تزوّج على مرتو بالسّر صبيّة صغيرة، هادا يلي بيخبّي دوا الشنسمو بالجريدة». تفتح خالة نَجميّة عينيها الضّيّقتين وتقول: «ولي على عيونه هالمقوّص، هاتي، احكي لنا». أبدأ قصّتي بتأنٍّ، واصفةً التّغيّراتِ البطيئة التي طرأتْ على الرّجُل: ألوان ثيابه التي صارت زاهية، وشعره الخفيف الأشيب الذي ساعدتُه في اختيارِ صبغةٍ له، وأصفُ أخيراً ارتباكه بعد أيّام، وقد دخل الصّيدليّة مع جريدةٍ كبيرةٍ، وناولني ورقةً صغيرةً، كُتبَ عليها بخطٍّ مضحك: / فياغرا- 3 علب/. أخبرهما كيف ضبطتُ ابتسامتي، وأحضرتُ الدواء، وكيف حرصَ الرّجُلُ على ألّا تلتقي نظراتنا، ثمّ انهمكَ في إفراغ أشرطة الدّواء

من العلب، لفّها بحرصٍ داخل جريدته، وانصرف تاركاً لي العلب الفارغة خلفه. «نفسُه خضرا ختيار الجن!». تختم جدّتي حكايتي بهذه الجملة، فتضحك الخالة وتكيلُ بضع شتائم طريفة له وللرّجال كلّهم، فتضحك جدّتي وتمنحني نظرة رضا.

وهكذا يوماً بعد يوم، عرفتُ نمط الحكايات المطلوبة، حكايات موجِعة تدمع لها العيون، أو حكايات من تلك التي تحلّ فيها الغمزات والابتسامات المتواطئة محلَّ الكلمات، كان يمكنني أن أحكي ما شئت، بشرط واحد، هو أن أتجنّبَ تماماً أيّ ذكْرٍ للحرب وحكاياتها، كأنّها لم تعش يوماً بيننا.

بعد الإفطار أخلع فستان شهرزاد، وأسكت عن الكلام المباح، أدخل المطبخ فأغسل الأواني، بينما تتوضّأ المرأتان، أمدّ لهما سجادتَي الصّلاة وأضع الكرسيّين الواطئين، فتستلمان القِبلة، تصلّيان المغرب جالستَين، وتتلوانِ القرآن حتّى أذان العِشاء وموعد صلاة التّراويح، وفي هذه الأثناء ينوب عنّي في الإمتاع والمؤانسة المسلسل الرّمضانيّ اليوميّ، بينما أتحوّل إلى (مايسترو)، أحمل جهاز التّحكّم عن بعد، أخفي بسرعةٍ صوت التّلفاز كلّما بدأ الفاصل الإعلانيّ، لتستأنف المرأتان صلاتهما بخشوع، أربع ركعات في كلّ فاصل، وحين يعود المسلسل من جديد أرفع الصّوت، فتسلّمان وتستأنفان متابعةَ المسلسل بشغف؛ أمّا حين يبدأ موجز العاشرة، فعليّ أن أطفئ التلفاز بسرعةٍ حين يتعفّر وجه جدّتي وتقول بحزن: «والله مات قلبنا من نشرات الأخبار».

***

لم أكن أعرف أنّني بعد سنواتٍ سأستعيد هذه التّفاصيل بدقّة، هنا في عمّان، فأبكي وتفلتُ منّي شهقة. «خير يا أختي، خير!». يقول سائق سيّارة الأجرة، فأخبره أنّني تذكّرتُ جدّتي الميتة. «يرحم أمواتِك وأمواتنا». يتمتم ويناولني منديلاً ورقيّاً. «آمين». أردُّ، وأشغل نفسي بمراقبة الازدحام من دوّار الداخليّة إلى جبل عمّان حيث تقيم الخالة نجميّة، أجلس لاحقاً مرتبكةً بين أبنائها وأحفادها، نتبادل أحاديث رسميّة مقتضبة عن الأوضاع في الشّام، وعن زيارتي الخاطفة لعمّان في دعوةٍ لمعرض الكتاب.

أسترق النّظر بين الحين والآخر إلى السّرير، حيث العجوز التي لم ألتقِ بها منذ أيّام عزاء جدّتي قبل عامين، أنظر إليها ويوجعني جسدُها الذي صار ضئيلاً، وعيناها الحائرتان، وذاكرتُها الذّاوية، والصّمت الذي اختارتْه، تقطعه بين الحين والآخر بكلماتٍ غير مترابطة تتمتم بها وحدها.

وقبل أن أنصرف، أنحني نحوها، أحتضنها بحنانٍ وأبكي، تتركها ذراعاي، لكنّ عينيّ تعبّانِ بنهمٍ ملامحَ وجهها الذي أعرف أنّني قد لا أراه مرّةً أُخرى أبداً، وفجأةً تستقرُّ نظراتُها التّائهة على وجهي، وتلتقي أعيننا في لحظةٍ خاطفةٍ، فتشرق ملامُحها كأنّها اكتشفت وجودي للتّو. «دوا الشئسمو بالجريدة». تتمتم مبتسمة، ولا يفهم كلماتها سواي، فأحتضن وجهَها بلهفة، أضحك، وتنساب دموعي في أخاديد وجنتيها الغائرتين.

خمسة مشاهد من أرشيف الأغنيات

-1-

صبيّةً عشرينيّةً كانت جدّتي في رحلتها إلى السّعوديّة عام 1972، تجلس إلى جانب زوجها في سيارة (بيجو 504) زرقاء، اشتراها حديثاً بعد أن حلم بها كثيراً، وادّخر ثمنها لسنوات، ونذر أن يسافر بها لأداء حجّته الأولى.

طوال الطّريق من دمشق إلى مكّة، كانت جدّتي تبحث في محطّات (الراديو)، وتستمع بدون مللٍ إلى أغنية «يا واد يا تقيل»، التي كانت آخر (موضة) وقتها، وبين الحين والآخر تمتدُّ يد جدّي بغضب لتطفئ الراديو، وهو يستغفر، وبعد طول جدال، توصّلا أخيراً إلى تسويةٍ معقولةٍ بالمناوبة بين خيارين، يقرآن سورة (يس) معاً بصوتٍ مرتفعٍ بدون أن ينسيا تكرار الآية ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ثلاث مرّات بخشوع، مع المسح على جسدَيهما، ثمّ يستمعان معاً إلى الأغنية بدون أن تنسى جدّتي أن تهزّ كتفَيها وخصرها بغنْج، بقدر ما تتيح لها جلستها، كلّما قالت سعاد حسني: «كِدا كِدا هُو».

-2-

لم يكن الدّمع يفارق العينَين الكليلتين لجدّة أمّي، تماماً كما كان جسدها الضّامر العجوز يكاد لا يفارق سجّادة صلاتها، منذ استشهد ابنها الأصغر في رمضان عام 1973 حين ضربتْ إسرائيل (آمِريّة الطّيران) وسط دمشق.

كان حزن الجدّة من ذلك النوع الذي لا يهدأ ولا يبرأ، ينساب مستمرّاً بدأبِ ساقيةٍ تحفر عميقاً في الرّوح، لم تفرضْه على أحد، بل ركنتْه في زاوية الغرفة، وظلّت ترعاه كما ترعى شجرةً مدلّلةً، تأوي إلى ظلّها وحدها.

بعد ذلك بعامين ونصف، وفي ليلةٍ ربيعيّةٍ، بُثّتْ أغنيةُ «قارئة الفنجان» للمرّةِ الأولى عبر إذاعة دمشق، أنصتتِ الجدّة العجوز إلى الأغنية جيّداً، وحين ترقرق صوتُ عبد الحليم ببطءٍ وبشَجَن: «يا ولدي قد مات شهيداً»، شهقتِ العجوز الثّكلى، وضربتْ صدرَها بكفّها، أعادها العندليبُ الأسمر مرّتين اثنتين، وأعادتها هي مرّات كثيرة.

أعادتها وبكت، أعادتها وبكت، أعادتها.. بكت.. ثمّ ماتت.

-3-

في شرفة بيت جدّي، في شارع بغداد وسط دمشق، كنتُ أجلس إلى جانب صغرى خالاتي، وهي تدرس لامتحانات الجامعة، أنتظرُ وقتَ استراحتِها لترسلَني إلى دكّانٍ قريبٍ، أشتري حفنةَ موالح في كيسٍ ورقيّ، فيدسّ الشّاب، ابنُ صاحب الدّكّان، في يدي قطعة شوكولاتة (مارس)،

ولأنّ الشوكولاتة في الثمانينيات حلمٌ صعب المنال، فقد كانت ثمناً عادلاً لأخبّئ في جيبي ورقة مطويّة يناولها الشّاب لي خلسةً، وأوصلها لخالتي بأمانةٍ بدون أن أفتحها.

- أشتري لكِ الموالح؟

سألتُ خالتي في مساءٍ خريفي، فابتسمت لي بعينين خامدتين، ووضعتْ شريط (كاسيت) في المسجّلة.

استمعتُ حينها للمرّة الأولى لأغنية «حبيبي بَدّو القمر»، بدت لي الأغنيةُ مبهجة، وظننتُها للأطفال، وحين تحسّرتْ فيروز: «وخايفة لنام وينزَل القمر، وتسرقه جارتنا، يلي مزاعلتنا، وتعطيه لحبيبي، ويحبّها حبيبي، وأنا صير غريبة». خبّأتْ خالتي وجهها بكتابها، وبكت بحرقة، عندها أدركتُ للمرّة الأولى أنّ أغاني الأطفال يمكنها أن تكونَ موجعةً، موجعةً جدّاً.

-4-

في بداية التّسعينيّات كانت عمّتي الأرملة الشّابّة، تربط خصرها في كلّ المناسبات، واستجابةً لإلحاح النّساء ترقص على الأغنية نفسها دوماً «زحمة يا دُنيا زحمة»، لم تكن الأغنية جديدةً وقتها، لكنّهنّ كنّ يبتعدن، وتنفرد وحدها برقصٍ بارعٍ لعشرِ دقائق كاملة على الألحان الصّاخبة للأغنية الشّعبيّة، تحرّك ذراعيها البدينتين بانسيابيّةٍ ساحرةٍ مع الإيقاع، ويتلوّى وسطُها برشاقةٍ على الرغم من طيّات الشّحم المتراكمة الّتي تطمس حدود خصرها، تتابعها العيون المنبهرة، ولا تفارق الابتسامة وجهها، وفي

منتصف الأغنية تقريباً، حين يقول أحمد عدويّة: «كتير الناس كتير، وأنا عايز أركب وأطير»، تفردُ ذراعيها كأنّها ستطير، تدور وتبكي، تبكي معها نساءٌ كثيرات، وأبكي أنا ابنة العاشرة بدون أن أفهم لمَ!

مرّت السّنوات، اشتعلتِ الحرب، وسافر أبناء عمّتي واحداً بعد الآخر، وبعنادٍ رفضت هي السّفر، لم تنصت إلى نصيحةِ أحدٍ من العائلة، باعت بيتَها وانتقلتْ إلى دارٍ للمسنّين في واحد من أرقى أحياء دمشق، التهمَ (السّكّريُّ) جسدَها فغدا رشيقاً، وعصرَ (الزهايمر) ذاكرتها فصارت عجفاء، بعدها بثلاث سنوات، وفي صباحٍ كانت فيه أعمدة الدّخان الرّماديِ تتلوّى في الأفق، ألصقتْ عمّتي وجهَها بزجاجِ النّافذة البارد، لم تكن تسمعُ أصواتَ القصف العنيف القادمة من بعيد، بل كانت تسمع ألحاناً صاخبةً لأغنيةٍ تنبجس من مكانٍ ما في رأسها، لم تعرفْ أين سمعتِ الأغنية من قبل، لكنّها في منتصفها تقريباً، وجدتْ نفسَها تفرد ذراعَيها كأنّها ستطير. راقبتْها الممرّضة بدهشة، وهي تدور حولَ نفسِها برشاقةٍ بضع مرّات، ثمّ تسقط دفعةً واحدةً، جرتِ الممرّضة على الجسد المتكوّم على الأرض، رأتِ الابتسامة الواسعة على الفم قليل الأسنان، والدّمعَ المنسكب على الخدَّين الضّامرين، لكنّها لم ترَ قطّ الرّوح التي ركبتِ الأغنيةَ وطارت، طارت بعيداً.

-5-

تزوّجتُ أغنية، فعلتُ هذا سرّاً منذ خمسة أعوامٍ تقريباً.

حين سمعتُها كانت الشمس تميل إلى الغروب، وكنتُ في فسحةِ

سماويّةٍ لبيتٍ قديمٍ جدرانُه بلون الحليب، عرفتُ منذ أوّل إيقاع أنّها هي، أغنية عمري، تردّدتُ قليلاً فقط، ولأنّني لم أسمع من قبل عن حُكْمٍ شرعيٍّ، أو سببٍ أخلاقيٍّ يمنعُ أن تتزوّجَ امرأةٌ بأغنية، حسمتُ أمري وتزوّجتُها.

كلّ ليلةٍ أضع سمّاعتين في أذنيّ، يغنّي ياس خضر لي «حن وآنا أحن»، أضبطُ ارتعاشاتِ روحي مع ارتجافاتِ اللّحنِ العراقيِّ الحزين، وأشربُ صوتَ ياس عبر مسامي كلّها، تكوي الأغنيةُ قلبي، فيذوب، ويسيلُ دموعاً، وقطراتِ مطر، وحبّاتِ ندى، ثمّ تلِجُ رحمي برفقٍ، فأنجبُ فراشاتٍ، وزرازير، وزهراتِ نرجس.

أبتسم قبل أن أنام، وتبتسم معي نساءٌ كثيرات، لا أعرفهنّ ربّما، لكنّني أعرف أنّهنّ مثلي، قد تحييهنّ أغنية، وقد تقتلهنّ أغنية.

دُو، يَك

أربعةٌ وخامسهم أبي، ظلّت سهرة الإثنين تجمع صداقتَهم لأكثر من نصف قرن، كلّ أسبوعٍ في بيت أحدهم، لا يمنعهم عنها حَرٌّ ولا قَرّ؛ ولأنّني كبرى بناتِه الخمس، ولأنّ الله لم يمنحه صبيّاً كما كان يتمنّى، فقد بقيتُ رفيقة أبي في سهراته، خاصّة إن كانت في منزلنا.

ألِفتُ أحاديثَ الرّجال، وخبِرتُ حيَل ألعاب الورق، وما زلتُ بارعةً في ألعاب طاولة الزّهر: (المحبوسة) و(المغربية)، يخفق قلبي كلّما سمعتُ قرعَ أحجار الطّاولة، أو صوتَ دحرجة النّرد، راقبتُ بانتباهٍ كيف يلفّ الرّجال سجائرهم، وكيف يعلّقونها في زوايا أفواههم، وهم يضحكون ويتحدّثون، عرفتُ أنّهم يتبادلون الشّتائم حين يمزحون، أنّهم يتفاهمون بدون كلام، وأنّهم يبكون بدون دمع، عرفتُ أيضاً أنّ الفرح يجعل عيون الرّجال تلتمع، وأنّ الحزن يجعل ظهورَهم تنحني.

كبرتُ، وكبرَ آبائي الخمسة، «اليوم سهرة الشّباب»، ظلّ أبي يقول هذا لأمّي كلّ إثنين، حتّى بعد أن تجاوزَ الرّجالُ السّبعين من أعمارهم، وحتّى بعد أن صارتِ الزّوجات تعدّ لهم على العشاء طعاماً قليل الملح،

قليل الدّسم؛ كنتُ أبتسم، وأنا أرى (الشّباب) يتوافدون إلى منزلنا، ببياضِ شعورِهم، بأخاديدِ وجوههم، بأوجاعِ مفاصلهم، وبثقلِ همومهم.

كبرتُ، وكبرَ آبائي الخمسة، كبروا كثيراً، ومرّت سنواتٌ كافية لتتفوّقَ في السّهرة كؤوسُ الأعشاب المغليّة على فناجين القهوة، ولتغلبَ أصواتُ السّعال صدى الضّحكات، ولتسبقَ المقبلّاتِ على الطّعام حبوبٌ وكبسولات، وصرتُ في آخر السّهرة، حين أكون وأمّي في المطبخ، أسمع صوتَ ضحكهم وقد علا، فأعرفُ أنّ أحدهم قد غفا، وهو جالس، فأضحك معهم.

سنوات أخرى مرّت، غيّرتْ أشياءَ كثيرة، وغيّرتْني أيضاً.

وعلى الرغم من أنّني أسكن الآن بعيداً جدّاً، وأنّ تعاقبَ الأيّام لم يعد يعني شيئاً لامرأةٍ مثلي، لكنّني مع ذلك أحرص يوم الإثنين تحديداً على زيارة أهلي، فقد صار يوم الإثنين في منزلنا يوماً باهتاً حزيناً، ربّما لأنّ الحرب، التي أقامت بيننا طويلاً، ماهرةٌ جدّاً في سرقة الأعمار وقهرِ الرّجال.

أبي -أطال الله عمره- أصبح الآن رجُلاً ثمانينيّاً، وحيداً حزيناً، بلا سجائر، فقد أنهك التّبغ رئتيه، وبلا أصدقاء، فقد رحل (الشّباب)، رافقهم أبي إلى مراجعاتِ الأطبّاء، عادَهم في المشافي، ثمّ شيّعهم واحداً واحداً إلى مقابر المدينة برأسٍ منكّسٍ، وقلبٍ مكسور.

مساءَ كلّ إثنين، يرتدي أبي ثيابه، يجلسُ، وطاولة الزّهر مفتوحة أمامه، والحجارة مرتّبةٌ في أماكنها، بحزنٍ أراقبُه من بعيدٍ يغفو جالساً، وعند الفجر تتأبّط أمّي ذراعَه وترافقه بحنانٍ إلى فراشه، ثمّ تخبّئ الطّاولة في الخزانة.

هذه اللّيلة، وبعد أن نامت أمّي، تجرّأتُ وجلستُ مقابله مبتسمةً صامتةً، وضعتُ يدي على طاولة الزَّهْر، لمحني فبهتَ برهةً، ثمّ ابتسم، تأمّلني طويلاً ودمعتْ عيناه. «نلعب؟». تمتم مستفهماً، فأومأتُ برأسي موافِقةً، اتّسعتِ ابتسامتُه، واحتضنتْ يمناه حجرَي النّرد، هزّهُما قليلاً بحماسة، ثمّ ألقاهما:

– «شِيش، بِيش». قال برضى، ونقّل أحجارَه البيض.

عندما حان دوري همستُ في أذنه، طلبتُ منه أن يلقي عوضاً عنّي، أخبرتُه عن حظّي العاثر، وعن يديّ الحمقاوين، هزّ رأسه بأسى، وألقى النّرد:

– «دو، يَك». قال بخيبة، نظر إليّ كأنّه يعتذر، ثمّ نقّل أحجاري السّود.

لعبنا طوال اللّيل، كنتُ قد هزمتُ أبي مرّةً واحدةً من قبل، رغماً عنّي هزمتُه، لكنّه هزمني اليوم في لعبة الطّاولة مرّات، ولأنّني أَلِفتُ الخسارات، مثل الجميع هنا، فقد رحتُ أبتلعها بمهارةٍ، وأنا أضحك، فيضحك أبي معي.

لعبْنا وضحكْنا كثيراً، ضحكْنا، وبكت أمّي حين نهضتْ قبل الفجر بقليل، بكت، وهي تراقب أبي يلاعب الفراغَ مقابله.

القسم الثاني

دروب

عيّوش

عيّوش اليومَ امرأةٌ سعيدةٌ، أخبركم هذا بيقينٍ تامّ، ومن المفترَض أن تصدّقوني، فأنا السّارد العليم في هذه القصّة.

1

مع كيسين أسودَين كبيرين تغادر عيّوش المدخل الرّخاميَّ لبناءٍ أنيقٍ في حيّ الشّعلان، وعميقاً بين ثدييها الفتيّين يختبئ كيسٌ أسودُ ثالث بحجم قبضة اليد، تمشي الآن متّجهةً إلى (كراجات) الانطلاق تحت جسر الرّئيس، لتركب ما يحملها إلى الضّاحية البعيدة حيث تسكن، وعلى الرغم من رائحة الكلور المزعجة التي تفوح من جسدها وثيابها، أحرص على مرافقتها عن قرب، لأصف لكم تَلاحُقَ أنفاسها، وانشغالَ ذهنِها بعمليّاتِ جمعٍ وطرحٍ كثيرة. «ربُّنا المدبّر». تهمس أخيراً، ثمّ تدخل دكّاناً صغيراً.

صاحب الدّكّان الذي دخلته عيّوش الآن، لن يصدّق أبداً أنّها امرأةٌ سعيدةٌ، فهو يراها معطفاً رمادياً رثّاً يغطّي جسداً نحيلاً، ويراها وجهاً شاحباً، وعينَين غائرتَين، وكفّين مشقّقتين.

- «أربعة أكياس (شيبس)، أبو الخمسمئة لو سمحت». قالت بحسم، لكنّ أصابعها تردّدتْ، وهي تُخرج ورقةَ ألفي ليرة من جيبها.

2

عيّوش اليومَ امرأةٌ سعيدةٌ جدّاً، وقد أضفتُ «جدّاً» حرصاً على التزام الدّقّة، فسعادتها زادت بعد شراء (الشيبس) لأطفالها، وها هي تحاول السّير بخطواتٍ أوسع، لكنّ ساقَيها تخذلانِها، فطوال الصّباح كانت تحمل السّلّم الحديديَّ الثّقيل، وتنقله من مكانٍ إلى آخر في أنحاء منزل الحاجّة أمّ موفّق، الذي تنظّفه عيّوش مرّتين أسبوعيّاً، صعدتْ ونزلتْ عشراتِ المرّات بجسدها العشرينيِّ الضّئيل، مع دلوٍ تُبدّلُ ماءه باستمرار، وتغسل الفوط القماشيّة، ومع أنّني كنتُ إلى جانب الحاجّة، فلم أستطع رؤية البقع المتّسخة في السّقف والجدران، التي كانت تشيرُ إليها آمرةً عيّوش بإعادة التّنظيف، لكنّني استطعت من مكاني نفسِه أن أسمع بوضوحٍ الشّتائمَ التي كانت تُبربِرُ بها عيّوش، مستغلّةً ضعف سمع العجوز.

بعضُ القلق بدأ يكسو الآن ملامح عيّوش، فقد تأخّرتْ، ولو وصل صغارُها إلى الغرفةِ قبل وصولها، سيرمون حقائبهم المدرسيّة عند الباب، وسيلعبون مع أطفال نواطير الأبنية المجاورة، ستصل لتجدهم معجونِين ليس بالسّعادة فقط، بل بالتّراب والعرَق. ماذا لو لم يسعفها الوقتُ لتغسلَ وجوههم وأيديهم، وتبدّلَ ثيابهم؟ ماذا لو أنهى عدنان، زوجُها، غسيلَ السّيّارات قرب البناء، ووصل قبلها؟

«تريدين أن تبهدليني أنتِ وأولادك؟ ها؟ تريدين أن يطردونا؟».

سيصرخ بها، وقد يصفعها، ستبتلع ريقها بصعوبةٍ وتسكت، وسيذكّرها للمرّة الألف أنّهم ليسوا في بيتهم، أو حارتهم، البيت والحارة مدفونان هناك بعيداً، شمال البلاد، وهُم هنا غرباء، تؤويهم منذ خمسة أعوام غرفة ضيّقة قرب مدخل البناء البُرجي.

تتذكّر الكيسين، فتغلّف طمأنينةٌ قلبَها، سينسى زوجُها بعضَ غضبه حين يرى الأرز والدّجاج في كيسها الأسود. «طبختُهم قبل ثلاثة أيام، شمّي رائحتَهم، إن أعجبتكِ فخُذيهم». كانت تمسح رفوف البرّاد حين قالت الحاجّة هذا، لم تحاول شمّ شيء، بل سكبتِ الطّعام في الكيس بفرح، فثلاثةُ أيّام في البرّاد، وفي هذا الشّتاء، لن تكفي ليَفسُد شيء.

تنظرُ إلى الكيس الآخر، وتتنهّد بارتياح، فالجزء الباقي من غضبِ زوجها سيتبخَّر حين يرى الكنزاتِ الصّوفيّة المستعمَلة التي أعطتْها إيّاها الحاجّة، قد تكون كبيرةً عليه قليلاً، لكنّ مهاراتِ عيّوش في الخياطة ستكفي لجعلِها ملائمة.

3

تصل عيّوش إلى جسر الرّئيس، تنزل الدّرجاتِ المكسّرة، لتنضمّ إلى المنتظِرين في الأسفل، ولأنّ أنفَها مسكونٌ بروائح المنظّفات، فلن تشمَّ رائحةَ البولِ الواخزة المعشّشة في الزوايا، والتي أشمّها أنا الآن، تمرُّ إلى جانب البسطاتِ المزدحمة فتلمح عجينة السّكّر، تمدّ يدها إلى جيبها لتشتري، «الحلاقة أسرع وأوفر». تزجر يدَها.. «أسرع صحيح، لكنّها تجعل شعر الجسد عنيداً قاسياً، يبقى النّتفُ هو الأفضل». تجيب

نفسها، ثمّ يخطر لها أنّ بإمكانها صنع العجينة بنفسها، تطمئنّ لهذا القرار فتبتسم، لكنّ ابتسامتها تذوي حين تتذكر البطاقة التموينيّة الحكوميّة، فإن كانت البطاقة (ذكيّة) وتحسب بدقّة حصّتهم من السّكّر كلّ بضعة أشهر، أليس عيباً أن تكون هي غبيّة ومبذّرة؟ «احلقي وأمركِ لله». تقول لنفسها، ثمّ يشرق وجهها بابتسامةٍ، فهذه اللّيلة ستنتظر أن يخرج زوجها كعادته، مع عودة التيّار الكهربائيّ، تمام التّاسعة، سيتوقّف بالمصعد طابقاً طابقاً ليجمع أكياس القمامة، يستغرق هذا نصف ساعة تقريباً، ستدخل الحمّام في غيابه، وبشفرة حلاقته ستجزّ الوبر النّافر من الكنزاتِ الثّلاث، ستفعل هذا بحرصٍ حتّى إنّها ستبدو جديدة، ثمّ ستخلع ثيابها، وبالشّفرة نفسِها ستحلق ساقَيها، وعانتها، وتحت إبطيها، ثمّ ستحمل الكيس الصّغير وســ... يقطع أفكارها صوت بوق سيّارة، فتصعد الرّصيف بدون أن تلتفت، يتكرّر الصّوت بإلحاح، فتلتفت بغضبٍ لتشتم، لكنّها تبتسم حالما تسمع النّداء: «عيّوش، اركبي، بسرعة».

4

وسطَ أكياسِ خضارٍ، ومؤونة، وعلب دهان، تجلس عيّوش في حوضِ الشّاحنة الصّغيرة، بين الحين والآخر تلتفت نحوها أم محمّد، جارتها المحشورة في الأمام مع أطفالها، تبتسم لعيّوش عبر الزّجاج الفاصل بينهما، بينما زوجها أبو محمد، ناطور البناء المجاور، منهمكٌ بقيادته السّريعة الخرقاء.

يصفع الهواء القارس خدّي عيّوش، فتخبّئ رأسها بين كتفَيها، تلامس

ذقنُها صدرَها، فيخطر لها الكيسُ الصّغير؛ كانت الحاجّة قد أدخلتْها فور وصولها صباحاً إلى المطبخ، وقفتْ عيّوش عند حوض الجلي الممتلئ بالأواني المتّسخة، فتحتِ الصّنبور، وقبل أن تغسل تفل القهوة الملتصق بأسفل الفناجين والرّكوات، التفتت حولها، وحين لم تجد أحداً، جمعتِ التّفل بالملعقة، وضعتْه في كيسٍ صغير، وخبّأته بسرعة في صدرها بيدٍ مرتجفة. والليلة، وبعد أن تحلق شعر جسدها، ستضع التّفل في الإبريق، ستضيف الماء الدّافئ، وتحرّك قليلاً، ثمّ ستغسل بالسّائل البنّيّ الفاتح أطراف شعرها، أمّا العجينة الدّاكنة الرّاسية في الأسفل، فستدهن بها جسدها، ستنتظر ربع ساعة، ثمّ ستشطف الشّعر والجسد، وستحصل على «نعوووومة الحرييير»، هكذا قالتها المذيعة في (الرّاديو) صباحاً حين كانت عيّوش في الباص.

5

عيّوش اليوم امرأةٌ سعيدةٌ، ولا شيءَ سيعكّر سعادتَها، لا الهواء القارس، ولا القيادة الجنونيّة لأبي محمّد، ولا آلام كتفَيها، كل ما يهمّها هو أنّ عدنان يعشق القهوة، بل ويعشق رائحة القهوة، لكنّ البنّ لم يدخل غرفتهما منذ شهور، وهذه اللّيلة ستفوح رائحة القهوة أخيراً في الغرفة، ليس من ركوةٍ على النار، بل من جسدها الأسمر في الفراش، سيشمُّ عدنان الرّائحة، وسيجذبها إليه بلهفة، سيدعكها، ويطحنها تحته كما تُطحَن حبّةُ بنٍّ سمراء.

***

عيّوش اليوم امرأةٌ سعيدةٌ، أخبركم هذا بيقينٍ تامّ، ليس فقط لأنّني السّارد العليم، ولا لأنّ خيالاتٍ حميمة تداعبُ الآن جسد عيّوش، ولا لأنّها ستصل إلى غرفتها في الوقت المناسب، بل أيضاً لأنّ صعودها الشّاحنة وفّر عليها خمسمئة ليرة كاملة.

- «لو أنّني اشتريت كيس (شيبس) لي!». تهمس عيّوش حين تخطر لها الخمسمئة ليرة، ثمّ تسند رأسها إلى حافّة الشّاحنة، وتغفو مبتسمة.

ليس لدى العجوزِ من يحادثُه

- وصَلتِ الأمانة يا حجّي، رُح واستلمْها اليوم.

استطاع أمين أن يميّز نبرة الفرح في صوتِ ابنه عامر، أعاد الاستماعَ إلى التّسجيل الذي وصل إليه فجراً عبر (واتس أب)، ودوّن العنوان الذي ذكره عامر له، ثمّ بدأ صباحَه كالمعتاد، حلق ذقنَه بتأنٍّ، وشرب قهوته في الشّرفة بين النّباتات الخضراء والورود، ثمّ سقاها وقرأ الفاتحة على روح زوجته التي كانت مولعةً بها، وأخيراً تناولَ إفطاره، وارتدى ثيابه: بنطال أسود مكويّ بعناية، وكنزة قطنيّة بيضاء تحملُ على صدرها من جهة اليسار شعار (لاكوست) مزيّف، تأمّل نفسه برضى على المرآة، ثمّ وضع على عينيه نظّارات شمسيّة، وعلى رأسه قبّعة أنيقة لها حوافّ جلديّة سوداء تحيط بقماشٍ تتناوب فيه مربّعاتٌ صغيرةٌ بيضاء وسوداء، يخصّص أمين هذه الثّياب لساعات عمله على سيّارته يوميّاً، من السّابعة والنّصف حتّى الثّانية ظهراً، ويبدو بثيابه الأنيقة أقرب إلى (كابتن) طيّارة منه إلى سائق سيّارة أجرة.

عند السّابعة والرّبع تقريباً نزل أمين من بيته، وبدأ طقوسَ العنايةِ اليوميّة

بسيّارته، رفعَ الدعّاسات عن الأرضيّة، نفضها في الشّارع وأعادها، ثمّ أزال الغبار عن الزّجاج بفوطةٍ جافّةٍ، وبأخرى مبلّلة مسحَ المقاعدَ بعنايةٍ، جلس أخيراً خلف المقود، تحشرج صوتُ المحرّك حين أدار مفتاح السّيّارة، وارتعشت واهتزّت، فقطّب أمين حاجبَيه القصيرَين الأبيضَين، وبدا القلقُ على ملامحه، فاليوم تحديداً يريد ألا يتأخّر، ويجبُ أن يصلَ باكراً إلى قلب المدينة ليستلمَ النّقود التي أصرَّ عامر على إرسالها له، كي يزوّد بيتَه بألواحِ طاقةٍ شمسيّة، تضمنُ له بضع ساعاتٍ إضافيّةٍ من الكهرباء، بدلاً من الاقتصار على السّاعات الأربع التي توفّرها الحكومة طوال اليوم؛ لم يكن إرسالُ المبلغ من (أميركا) أمراً سهلاً، فموعدُ مقابلةِ الجنسيّة التي ينتظرها عامر منذ سنواتٍ صار قريباً، ولن يجازفَ في الدّخول بِسِينٍ وجيم بخصوصِ مبلغٍ يحوّله إلى أحد (البنوك) في بلدٍ عربيٍّ، ولسوءِ حظّه فلم يوفّق كالعادة في إيجادِ صديقٍ يتطوّع بحملِ المبلغ إلى أبيه، ظلّ يسأل لأكثرَ من شهرين حتّى وجد قريباً لأحد أصدقائه، حملَ المبلغَ معه إلى الإمارات العربيّة المتحدة، ومن هناك ضَمِنَ شخصٌ وصولَ المبلغِ إلى دمشق، لقاءَ عمولةٍ محدّدةٍ عن كلّ ألفِ دولار.

- «عفارم يا ستّ الكل». بامتنانٍ قال أمين، وقد اعتدل صوتُ السّيّارة وانطلقت، و(ستّ الكل) هذه هي (فيات131) بيضاء، ابتكرتْ زوجةُ أمين لها هذا الاسم منذ اشتراها، ساخرةً من فرطِ عنايتِه بها، التصق الاسمُ بالسّيّارة منذ أكثرَ من ثلاثين عاماً، كما تلتصقُ الآن، على الوجه الخلفيِّ لمقعدِ السّائق فيها، ورقةٌ مستطيلةٌ مغلّفةٌ بتجليدٍ شفّافٍ، طُبِعَ عليها رقمُ هاتفٍ، وتحتَه بخطٍّ أنيق كلمتان: «جدّو أمين».

حين قرّر أمين أن يضع هذه الورقةَ حارَ كثيراً، لم يشأ أن يكتب اسمَه

كاملاً، فالدّنيا صغيرة، وقد يركب معه يوماً من يعرفُ ابنَه، أو ابنتَه، سيطير إليهما خبرُ عملِه سائقاً، وسيغضبان حتماً، فعامر يرسل له شهريّاً ما يفيض عن حاجته بكثير. «ماذا عن الأستاذ أمين؟». سأل نفسه، ومع أنّ هذا اللّقب ظلّ ملازماً له لسنوات، منذ تعيّن موظّفاً في مديريّة التّربية حتّى تقاعدِه، لكنّه استبعده، كي لا يجعل نفسَه مصدراً للسّخرية، أو للشّفقة في أحسن الأحوال. وأخيراً، اهتدى إلى كلمة «جدّو»، فهي مناسبة لسنواته الثّلاث والسّبعين، وستوحي للرّكاب بشيءٍ من الحميميّة، إضافةً إلى أنّه يحبّ هاتين الكلمتين معاً: «جدّو أمين»، مع أنّه يعدّ نفسه جَدّاً مع وقْفِ التّنفيذ؛ إذْ لديه خمسة أحفاد، لكنّه لم يرهم إلّا عبر شاشةِ هاتفه خلال مكالماتٍ مقتضَبةٍ متباعِدةٍ، ولا يدري إن كان سيلتقيهم يوماً.

***

«ليس لدى العجوزِ مَن يحادثُه»، تخطر هذه الجملةُ لأمين دوماً ويبتسم، فقد نسجَها على غرارِ عنوانِ روايةٍ لـ (ماركيز)، كاتبه المفضّل: «ليس لدى الكولونيل مَن يكاتبُه»، ويفكّر أنّه لو كان بطلاً لرواية، فإنّ هذا هو عنوانُها الأنسب بلا شك، وفي الحقيقة فإنّ حاجة أمين لتبادلِ الأحاديث مع الآخرين هي الدّافع الأوّل الذي جعله يلجأ إلى العمل بعد وفاةِ زوجته، ثمّ حين بدأ العملَ اكتشف أنّ الوارد الذي تدرّه عليه سيّارته، سيكفيه ليعيشَ حياةً بسيطةً متواضعةً، ويُغنيه عن مدّ يدِه إلى المبالغِ التي يصرّ ابنُه على إرسالها، مرّةً كي يملأ الخزّان بالمازوت أوّل الشّتاء، ومرّةً كي يُحضِرَ سيّدةً تنظّف البيت وتطبخ ثلاثَ مرّاتٍ أسبوعيّاً، ومرّةً كي يجدّد محرّك (ستّ الكلّ) التي لن يستبدلها أبداً، ومرّةً كي يجري فحوصاتٍ طبيّة شاملة. يستلم أمين المبالغ، ويؤكّد لابنه أنّ الخزّان امتلأ بالمازوت، وأنّ

البيت صار نظيفاً مثلَ الفُل، وأنّ (ستّ الكلّ) قويّةٌ كمئة حصان، وأنّ صحّته مثلُ الحديد، لكنّه في الحقيقة يكتفي بتكديس المبالغ في صندوقِ أحذيةٍ قديم، يخفيه جيّداً تحت سريره؛ وفي الأسبوع الماضي بالتّحديد صار الصّندوق فارغاً، فقد سحب أمين كلَّ ما فيه، وبعد استلامِ نقودِ اليوم سيتمكّن من تسديد المبلغ المتبقّي عليه، ويتِمّ خطّته التي نواها بعد رحيل زوجته بشهر تقريباً، حين برد حزنُه وبدأ التفكيرَ بنفسه بشكلٍ عملي.

لم يعتد أمين أن يخفي شيئاً عن ابنه وابنته، لكنّه مضطرٌّ هذه المرّة إلى التّصرّف وحده، فهو يعرف أنّهما سيعارضانه بالتأكيد، ولن يفهما حاجته إلى الطّمأنينة والمؤانسة، فكّر بهذا، وهو يعبُرُ بقيادته الهادئة المعتادة شوارع الضّاحية، وحين وصل إلى الدّوّار الرّئيسيّ تمهّل وغمزَ بأضواء سيّارته للمنتظرين، «إلى الشّام، إلى الشّام». قال، وهو يقترب، ولأنّ الوقتَ وقتُ ذروةٍ فلم ينتظر طويلاً، امتلأتِ السّيّارة بأربعة ركّابٍ تقاسموا أجرتها، وانطلق بهم نحو قلب العاصمة، سيوصلهم ثمّ سيكون عليه أن يجد مكاناً يركن فيه السّيّارة، وهي بالطّبع مهمّة صعبة في ساعات الصّباح، لكنّه لن يفكّر بها الآن، بل سيستغلُّ الدّقائق الخمسَ والعشرين، التي يستغرقُها الطّريق، كي يتحدّث مع الركّاب، وفي الواقع فإنّه لا يفلح دوماً في هذا، فبعض الرّكّاب يكملون نومَهم في السّيّارة؛ أمّا شباب هذه الأيّام، فمعظمهم تسدّ آذانَهم سمّاعاتٌ موصولةٌ بهواتفهم، يدندنون وحدهم، أو يبتسمون ببلاهةٍ بين الوقت والآخر، وهناك ركّاب يفضّلون الصّمت، يتحدّث أمين فيكتفون بالإيماء برؤوسهم، ويتظاهرون بالنّظر عبر النافذة.

يلجأ أمين إلى بعض الحيَل كي يحرّض الآخرين على الحكي، يستعين بـ(الراديو) أحياناً، يقلّب بين المحطّات، فإن مرَّ على درسٍ دينيٍّ

صباحيّ، علّقَ على نفاقِ رجالِ الدِّين وكذِبِهم، ولن يعدمَ الرّكابُ بالتّأكيد قصصاً تدعم رأيه، وإن صدح صوتُ فيروز، ترحّمَ على الأخوين رحباني، ولعن أغاني هذا الزّمان، وإن صادفَ نشرةَ أخبار، أنصتَ قليلاً، ثمّ قال بأسى: «باعوا البلد، خربوها وقعدوا على تلّتِها». يوافقه الرّكاب، ويبدأ حبلُ الكلام، لا يقطعه إلّا الخوفُ حين يندمجُ أمين في الحديث، فيشتمُ الحكومة والمعارضة معاً، «نسأل الله الفرج». يقول راكبٌ ما بنبرةٍ ذاتِ معنى، فينتبه أمين إلى نفسِه، ويغيّر الحديث؛ أمّا الجزءُ المفضّل لأمين، فهو الجزء الذي يروي فيه حكايتَه، ولا يتردّد في إضافة بعض البهارات أحياناً ليضمن أن ينصتَ الآخرون إليه باهتمام، وألّا يجد نفسه في السّيّارة صامتاً، تكفيه ساعاتُ صمتِه ووحدتِه الطّويلة في البيت، فأصدقاءُ عمرِه رحلوا تِباعاً خلال أقلّ من خمس سنوات، ثمّ بشكلٍ مفاجئ رحلتْ زوجته، أجّل دفنَها يومين حتّى وصول ابنتِه دينا من ألمانيا، جاءت بدون عائلتها، وأمضت معه بضعة أيّام، بدت له غريبةً عنه، وتذمّرتْ من كلّ شيء في البلد، ثمّ سافرت؛ أمّا عامر، فقد تعذّرَ قدومُه، لكنّه انتظر انقضاء أيّام العزاء، واقترح عليه أن يبيع البيت والسّيّارة، وينتقلَ للعيش معه في (أميركا)، رفض أمين الفكرة رفضاً قاطعاً. «أخاف أن أموت في الغربة، أريد أن أموت وأدفن هنا». قال مؤكّداً للرّجُل السّتّينيِّ الذي يجلس في منتصفِ المقعدِ الخلفيِّ منصتاً له باهتمام، أيّده الرّجُل في رأيه، فراح أمين يخاطبه عبر المرآة الصّغيرة، ويروي له وبالتّفاصيل الدّقيقة كيف عثر على زوجته في فراشها ميّتةً في أحد الصباحات، وكيف كانت محظوظة، فقد تيسّر أمر دفنِها في (مقبرة الدَّحْداح) في قلبِ العاصمة، كلّ ما فعله أمين هو الاتّصال بالابنِ الأكبر لأخيها المتوفّى قبل سنوات. «ادفِنوها في قبرِ

أبي، لن نرجع إلى البلد لا طيّبين ولا أمواتاً». هكذا أكّد الشّاب له موافقتَه وموافقةَ إخوتِه وتمّتِ الأمور بسرعة.

- «يلعن أختهم، القبر في (الدّحْداح) بثلاثين مليون ليرة يا رجُل!». علّق الرّجُل الخمسينيُّ الجالس إلى جانب أمين. «بأربعين والله يا أخي». صحّح له أمين بيقين، وبشكلٍ طبيعيٍّ بعدها اتّخذ الحديث مساراً آخر يتعلّق بغلاء الأسعار وسوء الأوضاع، وكان هذا كافياً لينسابَ الكلامُ بين الرّجال الثّلاثة طوال ما تبقى من طريق، بينما غفت امرأةٌ أربعينيّةٌ عند النافذة؛ أمّا النافذة الأخرى، فقد اتّكأت إليها شابّةٌ انهمكتْ في مراجعةِ محاضراتِها الجامعيّة.

تحت جسر الرّئيس نزل الرّكّاب، وتابع أمين طريقه، بعدها بساعةٍ كان قد استلم المبلغ كاملاً محوَّلاً إلى اللّيرة السّورية، وطوال أسبوعٍ كامل انهمكَ أوّلاً باتّصالاتٍ هاتفيّة، ومواعيد، وزيارات، ثمّ أتمّ الإجراءات والأوراق الرسميّة.

- ألواحُ الطّاقة نعمة والله، ربّنا ينوّر عليك يا عامر.

كانت شمعةٌ وحيدةٌ تضيء غرفة النّوم حين قال أمين هذا لابنه في عطلةِ نهاية الأسبوع، تمنّى كالعادة أن يحكي له أشياء كثيرة، لكنّه يحاول أن يتفهّم أنّ الشّابّ عمليٌّ ومشغول، وفي آخر المكالمة حين سأله ابنه بلهفةٍ صادقةٍ إن كان ينقصُه أيُّ شيء، فتح أمين بدون تفكيرٍ درجاً قريباً من سريرِه، وأخرج بسعادةٍ الورقةَ التي حصل عليها بعد جولةٍ طويلةٍ بين السّماسرة وأصحاب المكاتب العقاريّة: «لا تخف، لم يعد ينقصني شيء».

أكّد أمين، وعلى الرغم من الضّوء الشّحيح للشّمعة، استطاع أن يميّز بعض التّفاصيل من الورقة المذيّلة ببصمته وتوقيعه:

باع الفريقُ الأوّل الفريقَ الثّاني قطعةَ أرضٍ محدّدة كما يلي: 265 سم/ 90 سم، عمق 170 سم + 20 تقريباً، يُعَدّ البيع قطعياً.. يوجد في (مقبرة الدّحداح) مكتبٌ دائم فيه مستلزمات الميّت كافّةً، إضافةً إلى سيّارةٍ لدفن الموتى...

ترانزيت

1:10 بعد منتصف اللّيل

طويلتان ساقا هذا الشّاب الوسيم مقابلها، طويلتان بشكلٍ مضحك، ربّما تبدوان هكذا لأنّه قبل دقائق فردهما أمامه، زلق جسدَه قليلاً عن الكرسيّ، وغرق في النّوم بمجرّد أن شبكَ كفّيه على صدره، ثمّ مال برأسه جانباً، كانت قد رأته منذ غادرا الطّائرة معاً قبل ساعتين، وبدا لها خارجاً من (فيديو كليب) لأغنية حديثة: سُمرة جذّابة، وعضلات فاتنة، ولحية كثيفة كما هي (الموضة) هذه الأيّام.

تغلق عينيها، وصورة الشّاب في رأسها. «حاولي أن تنامي». تحثُّ نفسها، فما تزال أمامها أربعُ ساعات انتظار تقريباً، تنصتُ إلى ضجّة المطار، يقال دوماً: إنّ هذه الضّجة تساعد على النوم، لكنّها تنبّه حواسّها، وتجد نفسَها متورّطةً في تحليلِ مزيجِ الأصوات الذي تقطعه بين الحين والآخر نداءاتٌ رتيبةٌ تردّدها (الميكروفونات) بالإيطاليّة أوّلاً، فلا تفهم شيئاً، ثمّ بإنجليزيّةٍ طريفةٍ منكّهةٍ بالإيطاليّة، فتبتسم.

تفتح عينيها، وتنظر حولها من جديد، فيغيظها نومُ أغلبِ المنتظرين،

خاصّةً هذا الوسيم مقابلها، كلّهم نائمون، وهي وحدها تتناوش مع عقلها الثّرثار.

2:30 فجراً

لا تكفي ابتسامتُه الواسعةُ لحظةَ فتح عينيه ورآني على الكرسيّ مقابله، ولا نظراته الطّويلة ذات المعنى التي يتأمّلني بها بين الحين والآخر، فتتسارع نبضات قلبي، يجب على طويلِ السّاقين هذا أن يفعل شيئاً أوضح.

ربّما تبدو حماستي غبيّةً، لكنّ قصصَ حبٍّ جميلة تحدث في الرّوايات والأفلام، بين غرباء في قاعات الانتظار في المطارات، لستُ بطلة فيلمٍ، أو رواية، لكنْ من أين يسرق الكتّاب وصنّاع السّينما حكاياتهم؟ أليس من الحياة نفسها؟ ثمّ إنّني ما أزال امرأةً جميلةً، أصلح لأكون بطلة قصّة حبّ، أقول هذا بكلّ تواضع.

يا للبلادة! هيّا يا فتى، ألن تفعلَ شيئاً آخر غير التّحديق بي؟

- «شبابُ هذه الأيام جبناء». تقول ابنتي هذا دوماً، لكنّني الآن فقط أدركتُ كم هي محقّة.

يجب أن أتصرّف أنا، أليس هذا الوسيم ماهراً في التحديق؟ حسناً إذن.. أقف، أسحبُ حقيبتي الكبيرة من تحت الكرسي، وأبالغ في الانحناء كي يتمكّن من تأمّل مؤخّرتي، الرّجال عموماً ضعفاء أمام مؤخّرات النساء، هذه قاعدة عامّة، تأكّدتُ شخصياً من صحّتها عشرات المرّات، فكيف بمؤخّرةٍ مدلّلةٍ كمؤخّرتي؟ أقول: مدلّلة؛ لأنّني أخصّها بتمارين رياضيّة أقوم بها مع رشيقاتٍ أتابعهنّ عبر (اليوتيوب)، وبتدليكٍ دائم بمستحضرات مرطّبة

ومضادّة لـ(السيلوليت)، بدأتُ بفعل هذا منذ أتممتُ الأربعين، قرأتُ حينها روايةً للكاتب اللّاتيني (يوسا)، لا أتذكّر الآن عنوانها، ولا اسم بطلها، لكنّه كان مهووساً بجسده، يخصّص لكلّ جزء منه يومَ عنايةٍ في الأسبوع، أعجبتني الفكرة، وبدأتُ بتطبيقها مع بعض التّعديلات، فلمؤخّرتي وثدييَّ حصّة مكثّفة يوميّة من العناية، أفعل هذا كنوعٍ من الاعتذار لجسدي الّذي بدأتُ أستمعُ إليه متأخّرة جداً، وفهمتُ رغباتِه وحاجاتِه حين صار للزّمن ثقل، وصار مروره موجعاً، يرافقه كلُّ شهرٍ إنذارٌ أحمر دامٍ، أصبح في الفترة الأخيرة مضطرّباً ليذكّرني بأنّني أذبل وحدي.

أف! لن أسمح لهذه الأفكار أن تزعجني الآن.

ها هي.. علبة السّجائر، لستُ مدخّنة مواظِبة، لكنّ السّيجارة صديقةٌ لطيفة بين الحين والآخر، أسحبُ العلبة من الحقيبة الكبيرة، وأضعها في حقيبة يدي، ثمّ أعلّقها على كتفي.

أعتقد أنّه سيتصرّف الآن، لستُ متفائلة بسذاجة، لكنْ لن يكون غريباً أن يُعجب شابٌّ يبدو في أواخر العشرين، بامرأةٍ مثلي في منتصف الأربعين، يحدث هذا أحياناً.

أتّجه نحو قاعة المدخّنين متعمّدةً ألّا أنظر نحوه، أسمع صوتَ خطواتٍ خلفي، ثمّ نحنحةً قريبة، فأبتسم..

05:00 صباحاً

متلاصقان على الكراسي، وكفّه تحتضن راحة يدي، لا أعرف كيف تلاشت بيننا الحواجز بسرعةٍ كبيرةٍ هكذا، الآن فقط يمكنني أن أصدّق أنّ

الحبّ يختصر المسافات كما يقولون، أشعر أنّ قلبي يرقص، لكنّ عقلي لا يهدأ.

كيف سأحكي عنه لوحيدتي التي لم تتعثّر بقصّة حبٍّ مكتملةٍ حتّى الآن؟ يا الله كم يبدو خياراً مناسباً لها هي! لكنّ القدر وضعه في دربي، ومن أنا لأعاند القدر! الآن فهمتُ سبب رغبتي المفاجئة في العودة بعد ستّة أشهر قضيتها في كاليفورنيا. «إن لم تقتنعي بالبقاء من أجلي أنا، فابقَي من أجل الكهرباء، والغاز، والبنزين». كانت ابنتي تقول هذا ممازحة، لكنّني تركتُها لحياتها المزدحمة بين دراسة الجامعة ودوام المستشفى، وصعدت الطّائرة الأولى نحو (ميلانو)، وبعد قليل سأنطلق في أخرى إلى بيروت، لأعود إلى وحدتي وحياتي الرّتيبة في دمشق، أو بشكل أدقّ، إلى حياتي التي كانت رتيبة؛ فقد تغيّر كلّ شيء.

لكن.. ماذا سيقول النّاس حين يعرفون أنّني أحبّ شابّاً بعمر ابنتي؟ ليتني أستطيع أن أخفيه عن الجميع، أضحك وأشكر ذاكرتي التي شغّلت في رأسي أغانيَ كثيرةً تتحدّث عن عشّاقٍ اختبأوا في عيون الحبيبات، يقاطعني عقلي: «يحدث هذا في الأغنيات فقط؛ أمّا في الحقيقة، فلا أكثر من العيون المتربّصة والألسن الطويلة، لا مفرَّ من الزواج كي تخرسيهم». أومئ برأسي مؤيّدةً، سأطلب منه هذا وسيوافق؛ فوضع البلاد صعب، شقّتي الأنيقة ووضعي الماديّ المستقرُّ سيتكفّلان بإقناعه، سيحدث كلّ شيء بسرعة، فقط عليّ أن أزيل صورة زوجي المعلّقة على الحائط، والتي ربطت الحربُ شريطاً أسود عند زاويتها منذ عشر سنوات.

يا الله! أنا اليابسة سيسقي بساتيني نهرٌ فتيٌّ، يبدو هذا مبهجاً لدرجة

تجعلني أبتسم، وأتخيّل أشياء اللّيل فيرتعش جسدي، لكن.. مهلاً.. ماذا لو أراد!

لن أعكّر مزاجي الآن، إن أصرَّ على هذا فيمكننا أن نجرّب طفل الأنبوب، وفي أسوأ الأحوال لن أكون أنانيّة، سننفصل بهدوء، المهم أن أكون قد عشتُ بضعَ سنواتٍ من السّعادة، أو حتّى بضعة أشهر، لا بأس، لستُ طمّاعة أبداً.

شكراً يا الله، شكراً..

***

5:15 صباحاً

يرتفع صوتٌ أنثويٌّ أنيقٌ بالنّداء للمسافرين المتّجهين إلى بيروت على متن الخطوط الإيطاليّة، تدبُّ الحركةُ في الكراسي القريبة من البوّابة، وتقف المرأة الأربعينيّة الوحيدة، تسحب حقيبتَها الكبيرة من تحت الكرسيّ، تتّجه نحو الموظّف وتناوله أوراقها، ثمّ تلتفت خلفها، تبتسم، وهي تلقي نظرةً أخيرةً على ساقَيّ الشّاب الوسيم الذي ما يزال غارقاً في النّوم منذ ساعات، السّاقين الطّويلتين بشكل مضحك.

لم يرجعْ بعد

إلى بيرانديللو

-1-

- دوري عند الشّباك.

صاح الصّبيُّ بشقاوة، ولأنّ الباص المتّجه من دمشق إلى حمص كان على وشك الانطلاق والمقاعد ممتلئة عدا المقعد الأخير، فقد ركض بسنواته الخمس، ومعطفه الثّقيل ليجلس في آخر الباص عند النّافذة اليمنى، واستطاع الرّكاب جميعُهم أن يلحظوا التّناقض الطّريف بين طيش الصّبيِّ وحيويّته، وبين المظهر المتّزن الكامد لأمّه الثّلاثينيّة، الصبيّة الحلوة التي تبِعتْه بظهرٍ مستقيمٍ، وبخطواتٍ متأنيّةٍ، وبمعطفٍ قديمٍ، لكنّه مرتّب.

ألصق الصّبيُّ وجهه بزجاج النّافذة يراقب بفضولٍ النّاس في (الكراجات)؛ أمّا أمّه، فقد كانت مستاءةً من اضطرارها إلى الجلوس في المقعد الأخير الذي يتّسع لأربعة ركّاب، فلو عرفت أنّها ستجلس هناك لما دفعتْ ثمن تذكرتَين، وكان بإمكانها أن تضع الصّبيَّ في حضنها وتوفّر ثلاثة آلاف ليرةٍ بأكملها، لكنّها تشتري دوماً تذكرتَين بناءً على إصرار

زوجها، وتجلس في مقعدٍ لراكبَين تشغله وطفلها، لا حرصاً على راحتها، بل بسببِ غيرتِه العابرةِ للمسافات، والّتي صارت مَرَضيّةً منذ سفره. «لن يرتاح قلبكَ إلّا لو وجدتَ قمقماً يسعنا أنا وابني». ابتسمت ساخرةً، وأحكمتْ غطاء رأسها، وهي تستعيد هذه الجملة التي قالتها له، في أثناء جدالهما أمس، حين أخبرته عن عطلةٍ مدرسيّةٍ لثلاثة أيّامٍ ستستغلّها بالسّفر لزيارة أهلها، انقبض صدرُها حين تذكّرتِ الهوّة التي تتّسع بينهما، لكنّها سرعان ما تنهّدتْ بارتياح، فقد جلس السّائق خلف المقود، والمقعد إلى جانبها سيبقى فارغاً، وهذا أمرٌ جيّدٌ، ليس فقط لأنّها لن تُضطرَّ إلى الكذب حين ستخضع للاستجواب من زوجها، بل أيضاً لأنّ مزاجها المعكّر منذ أمس لن يسمح لها بتحمّل ثرثرة أحد.

أدار السّائقُ المفتاح، شغّلَ المحرّك، وأغلق الباب، تمتم عجوزٌ يجلس في المقعد الأوّل بدعاء السّفر، وأغمض شابٌّ يرتدي ثياباً عسكريّةً عينيه، وأسند رأسَه متهيّئاً لغفوةٍ ينتظرها بلهفةٍ، وابتسمتْ شابّةٌ عشرينيّةٌ، وهي ترسل على (الواتس أب): «مشينا من الكراجات حبيبي». وفي الحقيقة كان من المفترَضِ فعلاً أن يغادرَ الباصُ (الكراجاتِ) في تلك اللّحظة، لكنّ بضعَ طرقاتٍ متلاحِقة على هيكله الحديديّ جعلتْه يبقى في مكانه الذي لن يغادرَه إلّا بعد ثلث ساعةٍ كاملة.

- «إلى حمص؟». صعد الصّوتُ الخشن المرتفع الباصَ أوّلاً، ثمّ تبعتْه صاحبتُه السبعينيّة، تحملُ في يمناها عكّازاً معدنيّاً كانت قبل لحظاتٍ قد استخدمتْه لتوقِفَ الباص؛ أمّا بيسراها، فتجرُّ طفلةً في الخامسة، تجرّ هذه الأخيرة بدورِها كيساً كبيراً.

- «إي خالتي، إلى حمص، بس أنا ماشي». قال السّائق، وشرحَ للعجوزِ

أنّ عليها الذّهاب إلى شبّاكِ التّذاكر لتقطع تذكرةً للباص التّالي، سمع الرّكاب جميعُهم العجوزَ، وهي تجادل السّائق؛ أمّا صبيّةُ المقعدِ الأخير، فقد تابعتْ بسأمٍ ما يجري، ولأنّها مغرمةٌ بالتّرتيب، فقد راحت تتخيّل لو أنّ بإمكانها أن تدفع كرش العجوز نحو الدّاخل، وتغلق أزرار معطفها الرثّ الذي ضاق عليها، ثمّ تلمُّ خصلاتِ شعرها المصبوغ بالأشقر البرتقالي، وتحكِم فوقَ رأسِها المنديل الصّغير المزيّن بالأزهار، ابتسمت برضى حين تخيّلتِ النّتيجة النّهائيّة، ولم تلبثْ ابتسامتها أن تحوّلتْ إلى ابتسامةٍ ساخرةٍ حين قالتِ العجوز بحزم: «والله لن أسافر إلّا معَك، قلبي انشرح لك».

- «تكرمْ عينِك خالتي». قال السّائق مبتسماً باستسلام، وطلبَ من مساعدِه أن يأخذَ بطاقةَ هويّةِ العجوز ويعود إلى (الكراج) ليسجّل الهويّة هناك ويشتري التّذكرة، لكنّ العجوز رفعتْ حاجبَيها، ومطّتْ شفتَيها المطليّتين بأحمرَ زاهٍ، وسألتْ مساعد السّائق مستنكرةً: «وإذا ضاعت منك؟». أكّد الشّاب أنّه سيحافظ على البطاقة، أقسم بشاربيه، وبعينيه، وبالمصحف الشّريف، ومع ذلك رفضتْ العجوز بعنادٍ أن تعطيَها لأحد. «لن تذهب إلّا ورجلي على رجلِك». قالت للشّاب، كاد صبرُ السّائق ينفد، وتأفّفَ بعضُ الرّكاب، لكنّ المساعد الشّاب قال باستسلام: «تفضّلي خالتي». مزهوّةً بانتصارها قالت العجوز: «الله يرضى عليك». ونزلتْ خلفَه، وهي تجرُّ الطّفلةَ التي اقترح السّائق أن تنتظرَها في الباص، لكنّ العجوز قالت: «أعوذُ بالله، البنتُ أمانة في رقبتي».

استغرقتْ رحلةُ قطع التّذكرةِ ذهاباً وإياباً أكثر من ربع ساعة، وحين عادتِ العجوز كان كلُّ من في الباص يرمقونها بحَنق، وزّعتِ ابتساماتٍ كثيرةً عليهم، واتّجهت مع حفيدتها إلى المقعد الأخير، ابتسمتْ لأمّ

الصّبي، فردّت عليها بابتسامةٍ صفراء مقتضبة؛ أمّا الصّبيُّ، فحين ابتسمتْ له الحفيدة ابتسامةً خجولة، ردّ عليها بأخرى واسعة، وتخلّى سريعاً عن نافذته ليجلس قرب صديقته الجديدة، كان هذا في الأحوال الاعتياديّة سيسرُّ أمّه التي سترتاح من طلباتِه طوال الطّريق، لكنْ وبما أنّ هذه العجوز ذات الابتسامة الواسعة قد صارتِ الآن إلى جانبها فلن تتفاءل بهذه الرّحلة، وبالطّبع لم تخيّبِ العجوزُ توقعاتِها، كانت قد جلستْ للتّو، رأسُها داخلَ حقيبتِها القماشيّة الكبيرة المزدحِمة، ويدُها تبحث عن هاتفِها لتعطيه لحفيدتها، ومن داخل الحقيبة سمعتِ الصّبيةُ السّؤال الأوّل، الذي تلتْه أسئلةٌ كثيرة: اسمها، وعمرها، من أين جاءت؟ وإلى أين تذهب؟ اسم زوجها، لمَ سافر؟ وهل وضعه مستقر؟ التصقتِ الصّبيّةُ بالنّافذة، محاوِلةً الابتعاد عن العجوز ورائحة عرقها الحادّة، وأجابت عن الأسئلة باقتضاب، كانت تظنُّ أنّ هذا التّحقيق هو أسوأ ما سيحصل معها اليوم، ولم تدرِ أنّ العجوز لاحقاً ستعطسُ (بالخطأ) في وجهها، وستقرط رقائق (الشيبس) في أذنها، وستشرب (سهواً) من عبوة المياه التي معها، ولم تدرِ أيضاً أنّها ستتمنّى مراراً أن ترمي العجوز من النّافذة.

-2-

كانت هذه هي المرّة الأولى التي تسافر فيها العجوز إلى حمص بالباص، لكنّها لن تكون الأخيرة بالتّأكيد. «لن أحرمك من ابنتِك، والله سأحملها إليك ولو على رأسي». كانت قد قالت هذا لكنّتها قبل ثلاثة أشهر، ولن تحنثَ بيمينها أبداً ما دام فيها قلبٌ ينبض، ستحمل البنتَ

إلى أمّها كلّما طلبتْها، ولو زحفتْ إلى حمص زحفاً، أكّدتْ هذا للصّبيّة الجالسة إلى جانبها، وروت لها بالطّبع القصّة كاملةً، كيف فُقد ابنها منذ خمس سنوات هو وشاحنته الصغيرة التي يحمّل عليها الخضار. سألوا عنه كثيراً، وانتظروه طويلاً، «ذاااااب، مثل الملح». قالت هذا، وهي تفرك كفّيها ببعضهما، مرّت الشّهور ووضعتْ زوجتُه طفلتَها، ثمّ مرّتِ السّنواتُ، وكبرتِ الطّفلة، وفي العام الماضي توفّي زوج العجوز، وبإلحاحٍ من أبنائها عرضتْ بيت العائلة للبيع، ورفعتْ دعوى في المحكمة الشرعيّة، حكمَ القاضي بوفاة المفقود، فتقاسم الأبناء ميراثَهم من البيت، وقضتِ الكنّةُ عدّتَها مع العجوز في بيتٍ صغيرٍ انتقلنا إليه، روتِ العجوز كلّ شيء بسرعة وبحياديّة، كأنّها تروي ملخّصاً لأحداث مسلسلٍ تلفزيونيّ. «هي الدّنيا وأحوالها، الحيُّ أبقى من الميّت يا ابنتي». ختمت حكايتها هكذا، وصمتت قليلاً، وقبل أن تجد الصّبيّة وقتاً لتعلّق بكلمةِ مواساة، أو دعوةٍ بالرّحمة للشّاب، أضافتِ العجوز بصوتٍ هامسٍ، وهي تقترب من أذن الصّبيّة: «سافرتْ بعد العدّة لتزور أهلها، ولم ترجع، زوّجوها عندهم في البلد، وأجبروها أن تترك البنت عندي».

- «ماما عروس». بفرحٍ قالت الطّفلة التي كانت تتابع الحديث، مع أنّها بدت منهمكةً مع الصّبيّ في اللّعب على الهاتف. «إي حبيبتي، أمّكِ أحلى عروس». قالت العجوز مبتسمةً، ثمّ سألتِ الطّفلة إن كانت جائعة، حشرت يدَها في الحقيبة، بحثتْ قليلاً، ثمّ أخرجتْ بعض (ساندويتشات) الزّيت والزّعتر، وحبّات الخيار، اعتذرتِ الصّبيّة عن مشاركتها الطّعام، فأطعمتِ العجوزُ حفيدتَها والصّبي، وأكلتْ هي، غفتْ بعد ذلك، وارتفع شخيرُها، وأتيح أخيراً للصّبيّة أن تنفرد بنفسِها، لكنّها بدلاً من التّفكير بخلافاتِها مع

زوجها، وأمنيتِها ألّا يستقرَّ وضعُه، وألّا تكتملَ أوراقُ لمِّ الشّمل أبداً، وجدتْ نفسَها تفكّر في العجوز بكثيرٍ من الشّفقة، تأمّلتْ ظاهر كفّيها، رأتِ العروق النّافرة، والجلد المكرمش، والتّصبّغات الدّاكنة، راقبتِ الأصابعَ الثّخينةَ، وحين لمحتِ الطّلاء الأحمر الذي يصبغ الأظافر، ابتسمت.

بعد ساعةٍ استيقظتِ العجوز، وكان لسانُها أكثر نشاطاً، حكت -وبالتّفصيل هذه المرّة- عن ابنِها المرحوم، وظروف زواجِه، وتأخّرِ حملِ زوجته، روت، وهي تضحك؛ حكاياتٍ طريفةً عن الشّيوخ، والأطباء، والأدوية، وكانت الصّبيّة تنصت إلى حديثها، لا لأنّها لن تستطيع رميها من النّافذة، بل لأنّ خيوطاً من الألفة كانت قد نُسجتْ بين المرأتين.

- «ما شاء الله يا خالتي، ربُّنا وهبكِ الصّبر!». قالت الصّبيّة بلطفٍ حين صمتتِ العجوز أخيراً، ابتسمتِ العجوز. «الحمد لله، عندي الآن وفاء الصّغيرة، اسمُها على اسمي، وهي من رائحة ابني، يا لطيف كم تشبهه!». قالت واحتضنتِ الطّفلة.

في حضن الجدّة ظلّت أصابعُ الطّفلة تتابع اللّعب، وبدون أن ترفع عينيها عن شاشة الهاتف سألتِ الصّبي:

- أين أبوكَ؟

- أبي في ألمانيا، تعرفين ألمانيا؟

- لا، لا أعرفها.

- حلوة جدّاً، سافر إليها لكنّه لم يرجع بعد، وأنتِ أين أبوكِ؟

صمتتِ الطّفلة قليلاً، تابعت بأصابعِها الصّغيرة اللّعب، نقرتْ بتركيزٍ بضع مرّاتٍ على الشّاشة قبل أن تقول:

- بابا مات.

- «مات؟». سألها الصّبيّ بدهشة.

- إي مات.

- ولم يرجع؟

فكّرتِ الطّفلة قليلاً، ثمّ تركتِ الهاتف، نظرتْ إلى جدّتها وأجابت:

- لا، لم يرجع، صحيحٌ جدّتي؟

صمتتِ الجدّة طويلاً، ثمّ شهقتْ شهقاتٍ متتالية. «صحيح، لم يرجع بعد». قالت أخيراً بصوتٍ يتهدّج، وبنبرةٍ غير مصدّقة، كأنّها الآن، الآن فقط، اكتشفت هذا.

انحدرت دموع العجوز، كان بكاؤها صامتاً في البداية، ثمّ صار نحيباً عالياً، وحين التفت الرّكّاب إلى الخلف، كانت الصّبيّة تحتضن العجوز وتربّت على ظهرها بحنان.



يجب أن ينتهي كلُّ هذا

- اركبي باصَ النّقلِ العام.

اقترحَ صديقي ببساطة حين أخبرتُه قبل أيّامٍ أنّني أعاني شحّاً في الأفكار، وما أزال بحاجةٍ إلى كتابةِ عدّة قصصٍ كي أكملَ مجموعةً كنتُ حصلتُ على منحةٍ من إحدى المؤسّسات الثّقافية لإنجازها، تذكّرتُ اقتراحَه اليوم بعدَ الغداء، حين كنتُ مسترخيةً، أشربُ الشّاي في سريري، فغالبتُ بصعوبةٍ نعاسي وقرّرتُ أن أخرج.

غادرتُ البيتَ وقتَ الذّروةِ المسائيّة، التي تترافقُ عادةً مع موعدِ إغلاقِ الأسواق المبكّر في الشّتاء، وبعد نصف ساعةٍ من الانتظار، استطعتُ أخيراً أن أجد لي مكاناً في أحد الباصات، متشبّثةً بواحدة من الحلقاتِ البلاستيكيّة التي تتدلّى من السقف، وعيناي تراقبان بنهَمٍ الازدحامَ الذي يزداد حولي مع كلِّ محطّة يقف عندها الباص، فيفتح السّائقُ البابَين، ويتدافعُ الرّكّاب بدون تمييزٍ بين بابٍ أماميٍّ للصّعود، وآخر خلفيّ للهبوط، يشقُّ المغادرون طريقهم بصعوبةٍ بين الصّاعدين، يستخدمُ الرّجال مرافقهم، وتستخدم النّسوة حقائبهنّ الكبيرة، وأنهمكُ أنا في جمع تفاصيل ألتقطها من الوجوهِ

المتعَبة حولي، أو من نتفٍ من حوارات أسمعُها هنا وهناك، فأخزّنُ منها في ذاكرتي ما يصلح ليكون رؤوسَ خيوطٍ قد أنسجُ منها لاحقاً قصصي.

- «شو صار معنا؟!». يصيح السّائق بعد أن يتوقّف لدقيقتين، أو ثلاث في كلّ محطّة، فتجدُ صيحتُه طريقَها بين الأجساد المتزاحمة، تجتازُني وتصلُ إلى مؤخّرة الباص. «خاالص، رووح». يتطوّعُ بضعُ رجالٍ ويجيبونه، فيغلقُ البابَين وينطلق.

- «مين ما حاسب؟». بين الحينِ والآخر كان صوتٌ نحيلٌ يسأل بنبرةٍ آليّةٍ، ويبدو سؤالُه بلا معنى، فمع كلّ محطّة، تلتصقُ الأجسادُ المنهَكةُ أكثر، وتعبقُ الرّوائحُ أكثف، لم أستطع بدايةً رؤيةَ صاحب الصّوت، ثمّ حين انسلّ بصعوبةٍ بيننا وسط الزّحام، اكتشفتُ أنّه فتىً عشرينيٌّ بدينٌ بثيابٍ رثّة، يحمل دفترَ تذاكر بيمناه، ونصفَ سيجارةٍ خلفَ أذنه، وبالطّبع فقد ضمَمْتُه إلى قائمةِ الأبطالِ المحتمَلين لقصّةٍ ما.

- «تفضّلي». قال لي شابٌّ تخلّى عن مقعده، شكرتُه وجلستُ إلى جانبِ عجوزٍ تنظرُ عبر النّافذة إلى يمينِها، التفتتْ نحوي مبتسمةً بمودّة، تبادلْنا بضعَ عباراتٍ عن الزّحام وبردِ كانون، وعرفتُ أنّها ستنزل في المحطّةِ الأخيرة مثلي، كنتُ أنوي أن أتحدّث إليها أكثر، لكنّها أسندتْ رأسَها إلى النّافذة وغطّت في النّوم، صوّرتُ بهاتفي يدَيها المجعّدتَين المتشابكتين فوق حقيبتِها الجلديّة المهترئة النّائمةِ في حِجْرِها، فمن صورةٍ كهذه يمكنني أن أكتبَ يوماً قصّةً جميلةً، ثمّ فتحتُ التّطبيقَ الخاصَّ بتدوينِ الملحوظاتِ في هاتفي، وانهمكتُ في تسجيلِ ملحوظاتٍ مقتضَبةٍ متفرّقة. بدأتِ الأصواتُ حولي تتكرّر بصورةٍ رتيبةٍ: وقوفُ الباص وانطلاقه، نزولُ ركّابٍ وصعودُ آخرين، شعرتُ بالنّعاس، فأخرجتُ من حقيبتي حبّةَ سكاكر

بنكهةِ قهوةِ (الإسبريسو)، سرَتْ دفقةٌ من الكافيين في دمي، وغرقتُ من جديد في الكتابةِ بشيءٍ من النّشاط، هواءٌ باردٌ لسع خدّي الأيمنَ فجأةً، وانتبهتُ إلى أنّ هديرَ الباصِ صار أعلى، وأنّني لم أسمعْ صيحةَ السّائق منذ زمن، رفعتُ رأسي، فاكتشفتُ أنّ العجوز إلى يميني وزجاجُ نافذتِها كانا قد اختفيا.

تلفّتُّ حولي، عتمةٌ رماديّةٌ ثقيلةٌ كانت تلفُّ كلّ شيء، احتجتُ إلى بضع لحظاتٍ لأعتادها، ميّزتُ أولاً الأجسادَ المتزاحمة، ثمّ بصعوبةٍ تبيّنتُ الوجوهَ الكالحةَ التي بدتْ متشابهةً بشكلٍ غريب، كأنّ ممحاةً مرّت بملامِحها وتركتْها باهتةً بعيونٍ شاخصةٍ يابسة، سرَتْ في جسدي قشعريرةُ رعب، وقبل أن أستوعبَ شيئاً سقطَ رجُلٌ في مقدّمة الباص بارتطامٍ مكتومٍ فوق الأرضيّة، التي اكتشفتُ فجأةً وجودَ أجسادٍ أُخرى خامدة عليها، متكوّمة هنا وهناك كأكياسٍ من الخيش، هل هم أموات؟ سألتُ نفسي، وقبل أن أجد جواباً نهضتِ امرأةٌ من مقعدها، وأسرعتْ نحو المكانِ الذي تكوّمَ فيه الرّجُل، داست جسدَه، ترنّحتْ فوقه لحظةً، ثمّ رفعتْ يدَها وأمسكتِ الحلقةَ البلاستيكيّةَ المتدليّة من السّقف فوقه، مستعينةً بها لتتوازن، كان هذا ما ظننتُه، لكنْ حين أدخلتِ المرأةُ رأسها داخل الحلقة، اكتشفتُ أنّها كانت حبلاً ثخيناً يتدلّى من السّقف، أحكمتْه حول عنقِها بدون أن يبدو على ملامِحها الباهتة الحياديّة أيّ تبدّل، وراحت تتمايل نحو الأمام والخلف مع اندفاع الباص. نظرتُ إلى الرّاكب الذي يقف قرب مقعدي، فرأيتُ حبلاً مماثلاً حول عنقه، وسرعان ما ميّزتُ بصعوبةٍ في العتمةِ حبالاً أخرى حول أعناق الجميع.

أنا أحلم، يجب أن أستيقظ، أكّدتُ لنفسي، أغمضتُ عينيَّ بقوّةٍ طويلاً،

محاوِلةً التّركيز على طعم الصّحو، طعم (الإسبريسو) الذي ما يزال في فمي، لكنّ صوت ارتطامٍ جديد مكتوم أجفلني، فتحتُ عينيَّ واكتشفتُ أنّني ما أزال هنا، أغمضتُهما وفتحتُهما بضع مرّات، ولم يتغيّر شيء.

ماذا لو لم يكن حلماً؟ خطر لي هذا الاحتمال، لكنّني طردتُه على الفور، فها أنا بشجاعةٍ، لا يملكها إلا شخصٌ يحلم، أستعين بحافّة المقعد وأنهض.

لم يبدُ أنّ أحداً من هؤلاء الأموات الأحياء -أو ربّما الأحياء الأموات- قد لَحظني، بصعوبةٍ شققت طريقي بينهم، متّجهةً نحو السّائق لأطلب منه التوقّف لأنزل.

أنا أحلم، تأكّدتُ الآن، فهذا منطقُ الأحلامِ عادةً كما تعلمون، أعني أنّ كابوساً كهذا يستدعي أن يكون السّائق واحداً من ممسوحي الملامح، يداه متشبّثتان بالمقود، وعيناه شاخصتان، وهذا ما اكتشفتُه للتوّ، ناديتُه، نقرتُ على كتفِه بأصابعي، ثمّ هززْتُه بإلحاح، لكنّه لم يلتفت، وعبْر الواجهة الأماميّة للباص رأيتُ شوارع المدينةِ التي أحفظها شبراً شبراً، العتمةُ نفسها، المطبّات نفسها، بِرَك الوحلِ نفسها، والازدحامُ الخانق نفسه، لكنّ الباصَ يجد طريقه بيسْرٍ مندفِعاً بدون توقّف.

هؤلاء الأحياءُ في الخارج هُم أملي الوحيد، سأنادي على أحدهم، سائق سيّارةٍ ما، أو أحد العابرين، أو شرطيّ المرور ربّما، أتلفّتُ حولي فأجد النوافذ كلّها موصدة، أتذكّر نافذتي وأهمُّ بالعودة، فألمح انعكاسي على زجاج الواجهة وأكتشف أنّني..

يا الله! يجب أن ينتهي كل هذا، يجب.

نصف جسدي خارج الباص الآن، الهواء البارد يصفعني، أصرخ بهم عبر نافذتي، ألوّح لهم بيدي، أرى عيوناً تحدّق بي بفضول، ألمح حدقاتٍ تتّسع فزعاً، أو دموعاً تنسكب حزناً، لكنّهم جميعاً يشيحون بوجوههم عنّي، ويتابعون طريقهم، أصرخ بهم، أشتمهم، أتوسّل إليهم، ثمّ ألعنهم، وألعن هاتفي الذي اكتشفتُ للتوّ أنّه فارغٌ من الشحن.

ألم أخبركم أنّني أحلم! هذه الأشياء المستفزّة تحدث دوماً في الكوابيس، تفرغ الهواتف من الشحن، والأقلام من الحبر، والحناجر من الأصوات.

أجلس في مقعدي قرب النّافذة، أحني رأسي، وأضغطه بكفّيّ بعنفٍ، يجب أن أستيقظ، يجب أن ينتهي كلُّ هذا، ما تزال لديّ الإرادة لأصحو وأخرج، لن أيأس، فهكذا تسير عادةً أسوأ أحلامي، تتعقّد الأمور، وفي أكثر اللّحظات صعوبةً، أو ألماً، أو رُعباً، أجدني أخاطب نفسي: «لستِ مضطرّةً لمتابعةِ هذا، كفى! استيقظي الآن». ينجح الأمر دوماً وأستيقظ، وهذا ما سأفعله الآن.

أستجمع قوّتي وأغادر مقعدي، أقف في منتصف الباص، أراقب ما حولي بانتباهٍ شديدٍ، يسقط أحدُهم فأتحرّك مسرعةً، أدفع بقسوةٍ رجُلاً يتّجه نحو الحبل الشاغر، وأصل قبله، أُحكِمُ لفَّ الحبل حول عنقي، وأستسلم لاندفاعِ الباص، يتمايل جسدي نحو الأمام والخلف، وأختنق، يمرّ أمامي شريط حياتي كما يحدث عادةً لأبطال الأفلام، وتمرّ أيضاً كلّ القصص التي فكّرتُ بكتابتها منذ صعدتُ الباص، قصصٌ تكفي لمجموعةٍ كاملةٍ، سأكتبُها حتماً حين أخرج من هنا، سأكتبها حين ينتهي كلّ هذا.

أختنق، أختنق، يسري خدَرٌ في جسدي، وتعجز قدماي عن حملي، وحده الحبلُ الآن يحمل ثقلَ جسدي، لا ألم، ولا خوف، فقط أختنق، أخـ...

أصحو على صوتِ ارتطامي بالأرض، «نجح الأمر». أقول لنفسي، وأفتحُ عينيّ في العتمة مبتسمةً، أدركُ أنّني غفوتُ بعد الغداء، وسقطتُ في أثناء نومي عن سريري، لا أبالي بآلام جسدي، أهمّ بالنهوض، لكنّ أحدَهم يدوسني، وأسمعُ هديرَ الباص.

القسم الثالث

ليل

أميرة الّتي تعرف

كانت أميرة تعرفُ منذ استيقظتْ أنّ أمراً مختلفاً سيحدث اليوم، ربّما لأنّها رأتْ حلماً لم تسمحْ لعقلها باستعادة تفاصيله، فهي تعتقد أنّ الأحلام السّيّئة يجب أن تُنسى كي لا تتحقّق، أو ربّما لأنّ أوّل ما صادفتْه في الحديقة صباحاً كان عشَّ حمامة أسقطتْه رياح اللّيل، فارتجف قلبها حين رأتِ البيضة المكسورة وسمعتِ الأمّ تهدل بصوتٍ موجوع.

تعرف أميرة، العجوز السّبعينيّة، أشياء كثيرة، ليس بفضلِ شهادةٍ دراسيّةٍ تحملها، فهي بالكاد تتدبّر أمرها لتقرأ بعض الكلمات، ولا بسبب جاراتٍ ثرثاراتٍ يزرْنها، أو أولادٍ وأحفادٍ كثيرين يحيطون بها، فهي وحيدةٌ منذ سنوات، ولا لوجود تلفازٍ تتابع عليه البرامج والتّقارير، فهي لا تملك إلّا (راديو ترانزستور) صغيراً، ورثتْه منذ عشرين عاماً عن زوجها، يفلح أحياناً في التقاط بعض الإذاعات التي لا تتوقّف عن بثِّ الأغاني وبرامج الأبراج، إضافةً إلى نشراتِ أخبارٍ محليّةٍ تؤكّد بدون مللٍ، عند رأسِ كلّ ساعةٍ، أنّ كلّ شيء بخير.

تعرف أميرة، ذاتُ الجسد الضّخم، أشياء كثيرة، على الرغم من أنّها تكاد لا تغادر مكانَها عند الحائط القذر في طرف الحديقة العامّة. على

أريكةٍ ضخمةٍ مهترئةٍ تجلسُ دوماً، تحت سهمَين مرتبكَين يخرجان من عبارة: «تواليتات عامّة»، المكتوبة بأحرفٍ كبيرةٍ، وبخطٍّ ركيكٍ، ويتّجهان إلى الباب الحديديِّ الذي يبقى موارِباً طوال النّهار؛ أمّا في اللّيل، فتغلقه أميرة خلفها، لتأوي إلى سريرٍ صدئٍ ضيّقٍ داخل المبنى الرطب للحمّامات، تصطاد هناك بصعوبةٍ بضعَ ساعاتٍ من النّوم الذي يطير من عينيها أغلب اللّيل، ليحطَّ على رأسها في النّهار، فيُثقِلَ جفنَيها، ويوهِنَ جسدَها، فتغفو جالسةً، ولا يمكن لمن يراها من بعيد أن يخمّن أنّها نائمة، فكتفاها مشدودتان، وظهرها متّكئٌ بوقارٍ إلى ظهر الأريكة التي تحتضن جسدها منذ عامين؛ كانت قبل ذلك تقضي نهارها جالسةً على كرسيٍّ بلاستيكيٍّ صغيرٍ، لكنّها في أحد الصّباحات عثرتْ على الأريكة مرميّةً بين الأشجار العتيقة الّتي تحيط بمبنى الحمّامات، واستطاعت بنظرةٍ واحدةٍ أن تعرف حكاية الأريكة، فلا بدّ من أنّ أحدهم قد سحبها من بين الرّكام بعد انتهاء إحدى المعارك في أطراف العاصمة، ثمّ حين فشلَ في بيعها في سوق (الحرَامِيّة) ألقاها في الحديقة. نفضتْ أميرة التّراب عن وجه الأريكة، ومسحتْها بالماء والصّابون، فأشرقت الورود الذّهبيّة المنقوشة على زُرقتها الدّاكنة، ثم ّخاطت ظهرها بعناية، وثبّتت بالغراء تاجها الخشبي، وأخيراً أزاحتِ الكرسيَّ جانباً، وصارت الأريكة صديقتَها.

تعرف أميرة، ذات الثّوب الطّويل الأسود الكالح المزموم من تحتِ الخصر، أشياء بعضها قد لا يهمُّ أحداً، كأنْ تعرفَ وبدون أن تتحرّك من مكانِها الحمّام الذي سيُستخدَم، يمكنها ذلك فقط إن أصغتْ إلى وقعِ الخطوات وأنين الباب، تعرف أيضاً أنّ زوّار حمّامها من الرّجال قليلون، فالرّجال يملكون رفاهيّة قضاء حاجتهم في أمكنةٍ أُخرى، تشهد بهذا

الحجارةُ المنهَكة لسورِ المدينة الأثريِّ الذي يجاور الحديقة. تعرف أيضاً أنّه لا يقصد الحمّاماتِ العامّة في الصّباح الباكر سوى شابّاتٍ متشابهات، بوجوههنّ المتعَبة، بآثار الكحل السّائحة حول عيونهنّ، بثيابهنّ الضّيّقة شبه البالية، وبالطّريقة التي ترتجف بها كعوبهنّ العالية، كأنّها ترغب بالهرب من أحذيتهنّ العتيقة؛ تعرف أنّ الجوع يُخرجهنّ من بيوتهنّ، وأنّ ليل المدينة يغريهنّ، فيتغلغلنَ في الحارات الضّيّقة المعتمة، وأنّ الصّباح يتنكّر لهنّ، فتدسّ المدينة أصابعها في حلقها، تتقيّأهنّ بلؤمٍ قبل خروج الموظّفين وطلّاب المدارس، لتستقبلهنّ أميرة بابتسامةٍ حانيةٍ مشفِقةٍ، يمكثنَ طويلاً داخل الحمّامات، ولا تستنكر أميرة هذا، فبعد خمسِ سنواتٍ من عملها هنا، صارت تعرف أنّ الأمر يتجاوز الاستجابةِ لإلحاح مثانةٍ، أو أمعاء، أو تبديل فوطةٍ نسائيّةٍ، فبإمكانِ إحداهنّ أن تصبح أجمل في مكانٍ دميمٍ كهذا، فقط بقلمِ أحمر شفاهٍ ضامر، وقلمِ كحلٍ رخيص، ومرآةٍ مكسورةٍ على الجدار القذر، بإمكان أُخرى أن تغرق في مكالمةٍ هاتفيّةٍ حميمةٍ، تجعل جسدها حارّاً على الرغم من البرودة المزعجة التي تنزّها الجدران، تعرف أيضاً أنّ حمّاماً ضيّقاً محصوراً، قد يصلح لتحرّر امرأةٌ من صدرها حزنَها مهما كان فسيحاً؛ تحبُّ الشّابّاتُ أميرة، خاصّةً أولئك الصّغيرات اللّواتي لم يبلغن العشرين، يستودعْنها أسرارهنّ، وحين تحبل إحداهنّ تعرف أميرة وصفاتٍ شعبيّة مجهِضة، لا تبخل بها عليهنّ، ولأنّ مغليّ الزّنجبيل وقشر القرفة باهظ الثمن، تكتفي بغلي قشر البصل بنفسِها لهنّ.

تعرف أميرة ذات الابتسامة الواسعة، والفم قليل الأسنان، كيف تصغي جيّداً، تستمع باهتمامٍ إلى حكاياتِ العابرين بحمّامها، وهي تعبث بالشّعرات القاسيات في ذقنها، لا تبخلُ عليهم بالشّاي الذي تحضّره

على موقدٍ أرضيٍّ صغيرٍ تضعه عند قدميها، ولا تبخل كذلك بالتّعاطف، أو النّصح، لكنّها مع ذلك عوّدتْ قلبَها ألّا يتعلّق بأحد، يمرّ بها كثيرون: متسوّلون، وزبّالون، وسائقو باصات، وموظّفون، وباعة متجوّلون، وبناتُ ليلٍ، وجنودٌ، وطلّاب مدارس، يذهب ناسٌ، ويأتي آخرون، ووحدها تبقى تحرس الحمّامات القذرة، كما تحرس الشّجراتُ العتيقة مجرى (بردى) الآسن الذي يشقّ صدر الحديقة هنا. تتمنّى أميرة أن يمكث معها أحدٌ لوقتٍ طويلٍ، حدث هذا في السّنوات الماضية بضع مرّات في أيّامٍ هطلتْ فيها الحرب من سماء المدينة، فعرفتْ أميرة أنّ مكاناً غريباً موحِشاً مثل حمّامها، قد يصبح أليفاً آمناً، وحين كان الخوف يبدو على اللّاجئين إلى الحمّامات، كانت السّعادة تبدو على أميرة، وكذلك حين كانت الرّائحة المقرِفة للمكان ترسم التّقزّز على وجوههم، كانت أميرة تبتسم بأسى، فهي تعرف جيّداً أنّ هذه الرّائحة الواخزة صارت هي الرّائحة الحقيقيّة للمدينة كلها، تُسرع أميرة بإغلاق أبواب الحمّامات الثّلاثة بإحكام، تفعل هذا مع أنّها تعرف أنّه لن يفيد شيئاً، «الأشياء المخبّأة ستخرج في النّهاية حتّى لو غلّقنا الأبواب». تردّد أميرة هذه الجملة دوماً بحكمة العجائز، تعرف أميرة أيضاً أنّ أشياء كثيرة يمكن أن تتسرّب من تحت الأبواب المغلقة، مثل خيطِ دمٍ رفيعٍ تسرّب مرّةً من تحتِ باب الحمّام الأخير، كانت وردةٌ عشرينيّةٌ قد قطعتْ شريانَها داخل الحمّام، ماتت البنت وارتاحت؛ أمّا أميرة، فقد علقتْ في تحقيقٍ طويلٍ مع الشّرطة، وباتت ليلتَها في المخفر القريب، تذكرُ أيضاً صرخةَ ذعرٍ تسرّبتْ من الحمّام الثّاني مرّة، وحين دخلتْ كان سائلٌ لزجٌ شفّافٌ يزحف ببطءٍ على الأرضيّة الوسخة للممرّ، فتحتْ باب الحمّام، فرأت في الدّاخل الوجه المذعور، والبطن المكوّر، والساقَين

المضمومتين على بعضهما، فأدركتْ أنّ ماء رحم المرأة قد اندلق، وأنّها على وشك ولادة، اتّصل أولاد الحلال بالهلال الأحمر، لكنّ الطّفل كان مستعجلاً، استقبلته ذراعا أميرة بلهفةٍ، وضمّته بحنانٍ إلى صدرها، وهمستْ كلماتِ الأذان في أذنه، تبقّع ثوبها باللّزوجة والدّم، وطفح قلبها بالسّعادة؛ فهي لم تكن تدري، حتّى تلك اللّحظة، إن كانت يوماً ستضمُّ حفيداً لها إلى صدرها، فمحمّد بعيدٌ منذ سنوات، ومحمّد وحيدُها، ومحمّد فرحة قلبِها وحسرته.

تعرف أميرة عملها جيّداً، تفتح الباب الحديديَّ في الصّباح الباكر، وتسنده بحجرٍ كبيرٍ، تأخذ مئة ليرةٍ من كلّ زائر، تمنحه مقابلها ابتسامةً وإشارةً من يدها تأذن له بالدخول، لا تبذّر في استهلاك حصّة الحمّامات من المنظّفات التي توزّعها البلديّة كلّ بضعة أشهر، وتنظّف فقط حين تصبح القذارة غير محتمَلة، وكلّ ليلة قبل أن تنام تدخل الحمّامات مع خرقةٍ مبلّلةٍ بالكلور، تتجوّل في الحمّامات بحرصٍ، تتفحّص الجدران والأبواب من الداخل، تعرف أنّ الناس يتركون أشياء كثيرة خلفهم، يرسمون قلوباً، وشفاهاً، وتواقيع، يكتبون كلماتٍ بذيئةً، وأرقام هواتف مع أسماء، تحرص أميرة دوماً ألّا تمسح الأرقام أبداً، فيوماً ما ستشتري هاتفاً محمولاً، وحينها ستتّصل كلّ يومٍ بأحد هذه الأرقام، لا تدري ماذا ستقول، لكنّها تعتقد أنّها ستجد الكثير لتتحدّث به مع أناسٍ قد يكونون وحيدين مثلها؛ وفي الحقيقة فإنّ الأسماء والأرقام ليست مشكلةً بالنسبة إلى أميرة، المشكلة الحقيقيّة هي تلك العبارات التي تعثر عليها أحياناً، تتهجّى كلماتِها بصعوبة، وحين تفهمها تفشل في ضبط ارتجاف أصابعها، وهي تمسحها بخوفٍ، فأميرة تعرف أنّ واحدةً فقط من هذه العبارات قد تكفي لتضمن لها إقامةً في أحد

الأقبية المظلمة، تعثر أميرة أحياناً على عباراتٍ أُخرى، تتجاهل وقاحتَها عادةً، فهي تعتقد أنّ الله ليس لديه أقبية، وهو أكبر من أن تزعجه عبارةُ كفرٍ كتبها أحدهم على جدار حمّامٍ في لحظة يأس، ولأنّها تؤمن أنّه رحيمٌ بطبعِهِ فهي تؤجّل مسحها حتّى رمضان.

تعرف أميرة أشياء كثيرة، بعضها تتمنّى لو أنّها لم تعرفه يوماً، فهي –مثل الجميع هنا– قد سمعت كثيراً عن الأقبية المظلمة، لكنّها منذ خمسة أعوام حفظتْها، فقد زارتها جميعها، وهي تسأل عن محمّد، إلى أن اكتشفت أنّ أسوأها سمعةً ابتلعه، واليوم حين اقتربتِ السّاعة من التّاسعة ليلاً، وصل شابٌّ نحيلٌ شاحبٌ، يحمل كيساً من الموز، وآخر من التفّاح، سلّم عليها، ودخل الحمّام مرتبكاً، خرج بعد دقائق، وكَمَنْ يتخفّفُ من حملٍ ثقيلٍ، ناولها كلَّ شيءٍ دفعةً واحدةً: الكيسين، والكلماتِ المقتضبة، ومفتاحاً صغيراً، «وحّدي الله يا أمّي». بعينين دامعتين، وبصوتٍ مرتجفٍ قال، وهو يربّت على كتفها، وكان هذا كافياً لأميرة كي تعرف.

تعرف أميرة أشياء كثيرة، لكنّها تتجاهل بعضَها أحياناً، لتخدع نفسها، تعرف أنّ الحرب دعستْ على بيتها وتركته ركاماً بعد أن غاب محمّد بأشهر، وأنّ هذه الحمّامات صارتْ منذ ذلك الوقت مسكنَها الدّائم، لكنّها على الرغم من ذلك فرحتْ بمفتاحِ البيت وخبّأته بين ثدييها الضّخمين المترهّلين، تعرفُ كذلك أنّ محمّداً مات قبل عامين كما أكّد لها منذ قليل الشّاب النّحيل الذي كان معه هناك، والذي يبحث عنها منذ خرج قبل ثلاثة أشهر، ومع ذلك حين رأتْ محمّداً من بين دموعها عند أذان الفجر ضحكت، وحين مدّ لها كفّه استعانت بها ونهضت، والآن تعرف أميرة أنّ جسدها ما يزال هناك على السّرير، لكنّها على الرغم من هذا تتأبّط ذراعَ محمّد، وتمضي معه بطمأنينة.

مقبرةُ العصافير

لا تغرّدُ العصافير البريّة في مدينتنا، «إيبيء، إيبيء» تكتفي بترديد هذه اللّازمة بسذاجة، وتطير بأجسادها الرّماديّة الضّئيلة، ومع أنّها شبه خرساء، وبمظهرٍ كئيبٍ، لكنّني أحرص على إطعامها بدأب، فأنثر على الحافّة الضيّقة للنّافذة فتات الخبز يوميّاً على الرغم من اعتراضات زوجتي، التي قد تكون محقّةً، فشقّتنا الصّغيرة بلا شرفة، وليست لحياتنا رئة سوى هذه النّافذة الوحيدة، التي قمتُ بتثبيتِ عارضتَين حديديّتَين بعد حافّتها، ومددْتُ بينهما حبلين لنشر الغسيل.

تتقزّز زوجتي من فضلات العصافير التي تتيبّس على الحافّة، أو تُبقّع الغسيل؛ ولهذا هجرتِ النّافذة، مع أنّني تعهّدتُ بتنظيف الحافّة يوميّاً، وإعادة غسيل ما قد يتّسخ من الثّياب، فعلتُ هذا بطيب خاطرٍ، فالمهم هو ألّا أخذل ضيوفي الصّغار، تردّ زوجتي بابتسامةٍ ساخرةٍ كلّما أخبرتُها بهذا، وكذلك كلّما وصفتُ لها خفْقَ الأجنحة المتلاحقة، والزّقزقات الشّقيّة، والقفزات الرّشيقة، وكيف أنّ هذه الأشياء البسيطة تمدّني بأسبابٍ للاستمرار، وتمنح حياتي معنى، أو لأكون أكثر دقّة، كانت كذلك، فقد تغيّر كلّ شيء فيما بعد.

خرجْنا في أحد الصّباحات كالعادة، هي إلى وظيفتها، وأنا لأوصل الطّفلين إلى مدرستهما، وحين عدتُ فتحت (الكومبيوتر) ووضعتُ الإبريق على النّار لأحضّر كأس (المتّة) الأوْلى، التي ستتلوها كؤوس أُخرى، ترافقني وأنا أقرأ كتاباً أرسلتْه دار النّشر لأدقّقه وأحرّره، فهذا هو عملي منذ سُرِّحت من وظيفتي. بدّلتُ ثيابي، ثمّ لملمتُ فتات الخبز عن صينيّة الإفطار، واتّجهت إلى النّافذة، ولحظة فتحتُها جفلتُ ورميتُ الخبز جانباً.

فوق الحافّة رأيتُه، ساكناً، ممدّداً على ظهره، ساقاه نحو الأعلى، ومخالبه منحنية نحو الأسفل، وجناحاه مضمومان إلى جانبيه، تأمّلتُه للحظاتٍ بحزن، نفختُ عليه، وكزته بسبّابتي بلطف، ثمّ قلبتُه إلى الجانب، «يجب أن أدفنه». همستُ أخيراً باستسلامٍ، ودخلتُ غرفة النّوم لأبدّل ثيابي، وحين عدتُ أثارت غيظي العصافير، كانت هناك تقفز، وتزقزق، وتنقر الخبز بنشاط، لم يتغيّر شيءٌ عدا جثّة طازجة بالقرب، لا يبدو أنّها كانت تعني أحداً سواي.

- ألم تجد مكاناً آخر لتموت فيه يا صديقي؟

همستُ حين وصلتُ إلى الشارع معاتباً العصفور الذي صار مكفّناً بمنديلٍ ورقيٍّ، راقداً قرب ثقب البطانة داخل جيب معطفي الشتوي، واريتُ الجثّة الصّغيرة، وأكملتُ يومي بمزاجٍ حزين.

ما حدث في الأيّام التّالية كان منهِكاً لروحي، ففي كلّ صباح صارت نافذتي تهديني عصفوراً ميّتاً. «أيكون خبزي هو السّبب في موت العصافير؟». أرّقني هذا السّؤال، أعرف أنّه خبزٌ سميكٌ محروقُ الأطراف، لكنّه الخبز نفسه الذي آكله وأطعمه لأطفالي، يأكله آلافٌ غيرنا، وأخوضُ معركتين أسبوعيّاً في الطّابور أمام الفرن الحكوميِّ لأشتريه.

في جميع الأحوال، ومهما يكن السّبب الذي يدفع العصافيرَ إلى الموت عند نافذتي، فقد حسمتُ أمري. «مللتُ من تنظيف الحافّة». قلتُ باقتضابٍ لزوجتي متجاهلاً ابتسامتها الشّامتة حين لَحظتْ أنّني كففتُ عن إطعام العصافير، لم يكن هذا القرار سهلاً بالنسبة إليّ، فقد واظبتُ لسنواتٍ على نثر الخبز عند الحافّة حتّى حين كانت الحرب تزعق خلف النّافذة، وما زاد صعوبة الأمر هو أنّ العصافير ظلّت تزور نافذتي، «إيبئ، إيبئ» تناديني بإلحاح، وهي تقفز، وأتجاهل نداءاتها، «لا خبز يعني لا عصافير» أقنعتُ نفسي بهذه الحقيقة التي بدت منطقيّة، ومُجدية أيضاً، فقد ارتحتُ من عذاب رؤية الجثث الصغيرة.

لم تدم راحتي طويلاً، فبعد أسبوعٍ عثرتُ على جثّةٍ جديدةٍ، تبعتْها أُخرى فأُخرى، صرتُ قريباً من الانهيار، ففي ذاكرتي أصلاً، بعد عشر سنوات حرب، ما يكفيني من الجثث، المئات منها ربّما إن أضفتُ تلك التي رأيتُها في نشرات الأخبار وصفحات (الفيسبوك).

- كفى جثثاً يا الله!

توسّلتُ باكياً، ووجهي ملتصقٌ بزجاج النّافذة البارد الذي يفصل بيني وبين جثّة الصباح، «سنترك هذه الشقة». قلت لزوجتي يومها حين عادت من العمل، وتشاجرنا بالطّبع، فقد استأجرْنا هذه الشّقّة منذ طار بيتنا قبل خمس سنوات، والعثور في مدينتنا على أُخرى مثلها بإيجارٍ منطقيٍّ هو أمرٌ يشبه المعجزة، أعرف هذا جيّداً، لكنّني لن أستطيع الاستمرار أكثر في هذه الشّقّة الملعونة.

***

المسكنُ الجديد الذي اخترتُه، وتمسّكتُ به بإصرار، كان غرفةً تحت الأرض بكوّةٍ ضيّقةٍ عالية.

- «هذا قبرٌ وليس بيتاً». قالت زوجتي، وهي تبكي، ولم تنسَ أن تندبَ حظّها، وتلعن عمرها، وأن تستغلَّ المناسبة لتعيّرني بشبه بطالتي وبواردي الشّحيح، لم أعرْها اهتماماً، فقد كنتُ مبتهجاً بيقيني الجديد: «لا نوافذ، يعني لا عصافير».

ليلتي الأولى في القبو كانت مثاليّةً، نمتُ ملء عينيّ كما لم أنم منذ زمن، وحين استيقظتُ صباحاً كنت مستلقياً على جانبي، أحسستُ شيئاً نافراً تحتَ أضلاعي، مددْتُ يدي، فلمستُ الرّيش النّاعم والمنقار المصقول، اتّسعتْ عيناي ذعراً، انحدرتْ دموعي بصمتٍ، واحتضنتُ بكفّي الجثّة الصّغيرة التي ما زالت دافئة، وخبّأتُها بسرعةٍ تحت الوسادة قبل أن تراها زوجتي.

أعيش في القبو المعتم الرّطب حتّى اللّحظة، وفي اللّيل تزورني أحلامٌ كثيرةٌ مزدحمةٌ دوماً بالخبز الطّريّ الطّازج وبالنّوافذ الواسعة المشرَعة، لا تنقطع أحلامي السّعيدة، ولا يكفُّ قلبي عن إنجاب العصافير الميتة، مرّت سنواتٌ واعتدتُ هذا، صرتُ خبيراً في الدّفن، وهناك، عند رأس الحيّ، تحت ركامِ واحدٍ من الأبنية المدمّرة أملك الآن مقبرةً كاملة للعصافير.

صبيّ المشنقة

«تخلّصي من الشّعر الزّائد إلى الأبد بأحدث تقنيّات اللّيزر»، قرأتُ العبارةَ في اللّوحة الإعلانيّة على الجدار الجانبيّ لـ(كابينة) موقف الباص، وتابعتُ سيري مسرعةً بعينين قلقتين تراقبان أوّل الشّارع المقابل، تجاوزتُ اللّوحة، ثمّ الكرسيّ المكسورَ للموقف، وظلّ البياضُ تحتَ إبطِ فتاةِ الإعلاناتِ مطبوعاً في رأسي، حتى بدّدتْه أضواءُ الباصِ التي لاحت من بعيد في الطّرف المقابل، ارتفع صوتُ بوقِه، وسرى شيءٌ يشبه الجنون بين جموعِ المنتظرين الذين ركضوا نحوه.

«لو أنّني وصلتُ قبل دقيقتين فقط!». لعنتُ حظّي، وعرفتُ أنّني بالتّأكيد لن أحظى برفاهيةِ الجلوسِ على مقعدٍ في الباص؛ أمّا عثوري على مكانٍ أقف فيه، داخل الباص، فقد صار الآن شبهَ مستحيل، «ومع ذلك سأحاول» هممْتُ بقطعِ الشّارعِ نحو الباص، وفي تلك اللّحظة رأيتُ الحبلَ يتدلّى، وقبلَ أن أستوعبَ تماماً ما حدث، أحسسْتُ ببرودتِه تحت ذقني تماماً، وكان وجهي قد صار داخلَ الحلقةِ المربوطة في طرفه، صرختُ بذعر، وتراجعتُ بدون تفكيرٍ خطوةً إلى الخلف، فسمعتُ القهقهةَ السّاخرة.

رفعتُ عينيّ نحو الضّحكة الآتية من أعلى (كابينة) موقفِ الباص، فرأيتُه، صبيٌّ في الخامسةَ عشرةَ تقريباً بملامحَ خبيثة، يستلقي منبطِحاً فوق السّقف، «الله يلعنك!». صحتُ بكراهيةٍ، وأمسكتُ الحبلَ الثّخين المضفور لأنزعَه من يده، لكنّه في اللّحظة نفسها جذبه نحو الأعلى فانسلخَ باطنُ كفّي، وغرق الصّبيُّ بالضّحك، «مجنون!». صحتُ بصوتٍ مرتجفٍ، فردّ عليّ بشتيمةٍ قذرةٍ، سألتْني امرأتان تقفان قريباً إن كنتُ بخير، ناولتني إحداهما منديلاً ورقيّاً، ولم يبدُ أنّ أحداً غيرَهما من المارّة ينوي أن يتدخّل، قطعتُ الشّارع، وأنا أتحسّسُ عنقي، وقلبي ينبضُ بعنفٍ، وحين وصلتُ كان الباصُ قد غادر، وعليّ أن أنتظرَ معجزةً تسوق إليّ باصاً آخر.

من الطّرفِ المقابل رحتُ أراقب الصّبيَّ بمزيجٍ من خوفٍ وكرهٍ، وأنا أضغطُ المنديل الورقيّ على الجلد المسلوخ في كفّي، ثلثُ ساعةٍ مرّ، والصّبيُّ في مكانه، ضآلةُ جسدِه وعتمةُ الشّوارع يخفيانه عن الأنظار، يطلّ برأسه فقط، متربّصاً مثل صيّادٍ ماكرٍ، وحين تمرُّ امرأةٌ وحدها يُدلّي برشاقةٍ حبلَه المربوطَ كمشنقة. المسافةُ بيننا لم تكن تسمح بوصولِ الأصواتِ إليّ، لكنّني خمّنتُ أنّه ما يزال يتلقّى الشّتائمَ والصّرخاتِ بالقهقهة السّاخرة نفسها.

انشغلتُ فيما بعد عن مراقبتِه، فقد انهمكَ رأسي بعمليّاتٍ حسابيّةٍ، قرّرتُ بعدَها أن أتجاهلَ النّداءات: «جرمانا، ماشي فوراً، جرمانا»، «سأنتظر الباص» حسمتُ أمري، فحساباتي تؤكّدُ أنّني لن أتحمّلَ كلفةَ سيارةِ أجرةٍ مشتركة، من تلك المركونة قربَ الموقف، والّتي ينادي سائقوها بدون ملل. أجبتُ بعد ذلكَ على اتّصالٍ هاتفيٍّ من صحفيّ، طرح عليّ بضعَةَ أسئلةٍ سريعة لتقريرٍ يعدّه عن ورشةٍ حول «تعزيز مفهومِ المواطَنة»، رعتْها

واحدةٌ من المنظّماتِ الإنسانيّة النّاشطة في العاصمة، وخرجتُ من جلستها الختاميّة قبل قليل، اتّصلتُ بعد ذلك بزوجي وأخبرْتُه أنّني سأتأخّر، ولأنّ السّاعة اقتربتْ من التّاسعة فقد تحدّثتُ إلى طفلي أيضاً، ذكّرتُه بترتيبِ كتبِه المدرسيّة في الحقيبة حسب برنامج الغد، وتمنّيتُ له ليلةً طيّبة، وما إن أغلقتُ الهاتف حتّى لمحتُ أضواء الباص من بعيد، وفي اللّحظة نفسها سمعتُ الصّراخ.

– يا ابن الحرام! في الطّرفِ المقابلِ من الشّارع كان رجُلٌ يصرخ بهذه الكلمات، ويعيدها بغضبٍ بدون توقّفٍ، وهو يسحب صبيَّ المشنقةِ من ذراعه، ويسقطه أرضاً، ثمّ ينهال عليه ضرباً وركلاً.

الفضول، أو الرّغبة في الانتقام، أو ربّما مزيج من كليهما، هو ما جعلني أترك الباص، وأقطع الشّارع، وأقف بين المتجمّعين لأتفرّج: زوجة الرَّجُل تقف جانباً، وكفّها ما تزال تتلمّس عنقَها بذعر، الرّجُل يركل ويضرب، وبغضبٍ يخبر المارّة أنّه وقف ليشتري السّجائر من (الكشك) القريب، وسبقتْه زوجته ببضع خطوات، ثمّ سمع صرختها، ورأى الحبل والصّبي، يستمع الرّجال بفضولٍ، ويتطوّع بعضُهم بركلاتٍ، ولكماتٍ، وشتائم؛ أمّا الصّبيُّ، فيضحك بوقاحةٍ تزيد جنونَ الرّجُل وعنفَه، لحظات وتتحوّل الضّحكاتُ الوقحة إلى ضحكاتٍ بلهاء، لحظات أُخرى وتتحوّل الضّحكات البلهاء إلى نواحٍ مرير، «يكفي، اتركه، كرامة للنّبي». تقول زوجة الرّجُل، وهي تتشبّث بمرفقه، فيودّع الصّبيَّ بركلةٍ أخيرةٍ في بطنه، ويتركه على الأرض كومةً مرتجفةً تنزّ أنيناً، ويبتعد مع زوجته لاهثاً.

شابٌّ من المتجمّعين يقترب ليساعد الصّبيَّ على النّهوض، يمسك ذراعه فينتفض الصّبي، ويرفع وجهاً ملطّخاً بالدّم، والدّمع، والسّخام،

«شنقوا أمّي، شنقوها». يقول بلوعةٍ وانكسارٍ، وعيناه بعينيّ الشّاب. «لا حول ولا قوة إلا بالله». يقول الشّاب، ثمّ أسمعها مرّاتٍ عديدة بأصواتٍ مختلفة.

من هم؟ كيف شنقوها؟ ولماذا؟ لا يجرؤ أحدٌ على السّؤال، نتبادل فقط نظراتٍ خائفةً، ويزحف البرد إلى الأجساد، بردٌ أعرفه جيّداً، قاسٍ، يجعل العظام تتألّم، والقلب يرتجف.

يقف الصّبيُّ متكئاً على ذراع الشّاب، تناوله امرأةٌ قنّينةَ ماءٍ بلاستيكيّةً صغيرةً، يدلق الماء في حلقه دفعةً واحدةً، ثمّ يتحرّر من ذراع الشّاب، ويقذف القنّينة بعيداً، يمسحُ بباطن كفّه المخاط والدّم عن أنفه، وهو يتلفّت حوله، يجرجر قدمَيه بصعوبةٍ نحو الحبل الملقى على الأرض، يضعه على كتفه، يدير ظهرَه، ويهمُّ بالانصراف، ثمّ يلتفت نحونا فجأةً، يبصق علينا، ويغرق في الضّحك، يتسلّق (كابينة) موقف الباص، وينبطح هناك مع حبله.

عواء

-1-

حين سمع اللّهاثَ خلفَه، كانت بضعُ دقائق قد مضت على سيره بمحاذاة مجرى النّهر، متّجهاً من المحطّة الأخيرة للباص وسط المدينة إلى السّاحة حيث يجتمع ورفاقه كلّ صباح.

أتاه اللّهاث هذه المرّة واضحاً، ولم يستطع إقناعَ نفسه بأنّه وهمٌ أنجبه أرقه المزمن؛ ولأنّ الوقت مبكر والشّارع شبه خالٍ، فلن يستطيع أن يفترض أنّ أحدهم يلهث قريباً منه، كما فعل الأسبوع الماضي، كان حينها واقفاً منذ ساعات على الرّصيف المكتظّ بالأجساد المتعبة، ينتظر دوره لاستلام جرّة الغاز، فسمعَ اللّهاث قريباً بشكلٍ مقلقٍ، بالكاد احتفظ بهدوئه، وأقنع نفسه أنّه لهاث العجوز الثمانينيّ المتهالِك الواقف خلفه.

لكنّ اللّهاث اليوم مختلف، جاء مرتفعاً متلاحقاً، وبدا بطريقةٍ ما حيوانيّاً.

حسم الرجُل أمره أخيراً، والتفت خلفه، فرآه، ميّز القوائم الأربع أوّلاً، ثمّ رأى الذّيل المتأرجح، فتلاحقت ضرباتُ قلبه.

تسمّر في مكانه، ثمّ حاول تمالك نفسه، «تشجّع يا رجُل، عيب على شاربيك وعلى سنواتك الخمسين». خاطب نفسه واتّكأ بمرفقيه على السور الحجريّ للنهر، تظاهر بتأمّلِ المياه الشّحيحة القذرة وراح يسترق النّظرات إلى الظّلّ اللّاهثِ قربه، ثمّ ابتلع ريقه بصعوبةٍ، وتجرّأ ملتفتاً إليه، كان باهتاً لأنّ السماء ضبابيّة اليوم، أطول منه بمرّاتٍ كشأن الظّلال في ساعات الصّباح، ينبع من أسفل قدميه، وينسكب على الرّصيف قربه.

رفع ذراعه اليمنى، فرفع الظّلّ بالمثل إحدى قائمتيه الأماميّتين، هزّ رأسه يمنةً ويسرةً، وكذلك فعل الظّل، تنهّد بعمقٍ، فزمجر الظّلّ بغضبٍ، جفل لوهلة، لكنّه ابتسم بعدها فهذا الكائن الغاضب بدا له أليفاً بطريقةٍ غريبة.

ولأنّ عليه أن يصل إلى الساحة بسرعة، وإلّا سيجوع أولاده اللّيلة، فقد غذّ السير متلفّتاً كلّ حين ليطمئن أنّ الظلّ يتبعه، وصل إلى السّاحة قبل رفاقه الحمّالين، اختار شجرةً افترش الرّصيف تحتها، وابتسم حين أرجح الظلّ ذيله قبل أن يذوب في ظلّ الشّجرة.

في السّاعات التّالية كاد ينسى أمر ظلّه، فقد وصل الرجال تباعاً، ووصل بعدهم رزقهم، شاحنة صغيرة أقلّتهم إلى إحدى البلدات المدمّرة في طرف المدينة، ارتجف قلبه حين دخلوها، ولم يخبر أحداً من رفاقه أنّ بيته كان هنا، في مكانٍ ما وسط هذا الدّمار، وأنّه انتشل بنفسه قبل سنواتٍ جثّة ابنه الأكبر مع جثثٍ أخرى كثيرة طازجة من تحت هذه الحجارة، ابتلع حسرته وانهمك بالعمل، عبّأ الرجال أكياساً كبيرةً من الرّدْم والحديد، حملوها على ظهورهم ورفعوها إلى شاحناتٍ كبيرةٍ، فاختلط لهاث الظّلّ بلهاث الرجُل ولهاث الحمّالين، انطلقت الشّاحنات الكبيرة لا يدري الرّجال إلى

أين؛ أمّا الشّاحنة الصّغيرة، فقد أعادتهم إلى السّاحة، كانت الأوجاع اليوميّة في ظهره وركبتَيه قد بدأت حينها، وكانت الشّمس في منتصف السّماء، والظّلال قصيرة تكاد لا تُرى.

-2-

تغيّبتْ ثلاثة أيّام، سوّغتها بتقريرٍ طبيٍّ ملفّقٍ اشترته، ثمّ عادت إلى دوامها، على الرغم من أنّها ما زالت تخشى أن يلمح أحدٌ ظلّها الجديد.

«هؤلاء العفاريت! لا يفوتهم شيء». تقول لنفسها، وهي تبحث عن نظرةٍ غريبةٍ في عيون تلاميذها، أو همسة مريبة حين تدير ظهرها لتكتب على السّبّورة.

كان من حسن حظّها أنّ الطّقس خريفيّ، السّماء غائمة، والظّلال بالكاد ترتسم، ومع ذلك فقد بقيت تأتي إلى المدرسة قبل الجميع، وتتجنّب النّزول إلى الباحة، تفعل هذا مضطرّةً فقط عند تحيّة العلَم، خشية أن يكتب أحدهم عنها تقريراً يرفعه إلى (فوق)، فيستضيفونها عندهم (تحت)، مرّت بتجربة مشابهة من قبل، ولن يسرّها أبداً أن تكرّرها.

كان قد مرّ أسبوعان تقريباً حين تأكّدت أنّ الآخرين يرون ظلّها طبيعيّاً، وأنّ اللّهاث موجودٌ فقط في رأسها، لا يسمعه سواها، صحيحٌ أنّها اكتشفتِ الأمر متأخّرةً، بعد كثيرٍ من لحظات الفزع كلّما اقترب منها أحد، لكنّها بدون شكٍّ ممتنّة جدّاً لهذا، «هل سبب ما يحدث هو تشوّشٌ في إدراكي أم قصورٌ في إدراك الآخرين؟». سألت نفسَها مراراً ولم تجد جواباً، لكنّها بدأتْ تتأقلم قليلاً مع وضعها، لولا أنّ ألماً مباغتاً داهم ظهرها.

أخبرها الطّبيب مطمْئِناً أنّ مهنتَها أرهقتْ عمودَها الفقري، وأنّ جسدها الأربعينيَّ سيستعيد عافيته سريعاً، وصف مسكّنات، ومرهماً حارّاً برائحة واخزة. مرّ أسبوع ولم تتحسّن، غيّرت الطّبيب، وغيّرت معه الأدوية، لكنّ شيئاً لم يتغيّر، سوى راتبِها الّذي طار نصفه، وصار عليها وأمّها أن تلغيا واحدةً من الوجبات اليوميّة لبقيّة الشّهر، أو أن تطلبا مساعدةً من إخوتها المبعثرين في البلاد البعيدة.

خلال أيّامٍ أضيف إلى الألم ثقلٌ أحنى ظهرها، لم تستطع تحديد مكانه، في قلبها، أم في رأسها، «فيهما معاً ربّما، مَن يهتم!». همستْ ساخرةً أمام مرآتها وخرجت، في منتصف الدوام صارت عاجزةً عن فردِ جذعها، وبالكاد تجاهلتِ النّظراتِ الفضوليّة لتلاميذها.

في الأيّام التالية اكتشفت كم على البشر هنا أن يجاهدوا ليبقوا منتصبين برؤوسٍ مرفوعةٍ، كانت تنظر حولها بسخرية، «ممثّلون بارعون!». تقول في سرِّها، وهي تقف بصعوبةٍ مستعينةً بمشدٍّ مدعّمٍ، تلفّه حول جذعها؛ أمّا داخل المنزل، فقد اكتشفتْ حلاً سحريّاً، طبّقتْه، وصارت سريعاً ماهرةً في السّير على أربع برشاقة، تضحك هي، وتبكي أمّها العجوز.

أيّام قليلة أخرى، وبدأت تكزّ أسنانها بِغلٍّ، وهي نائمة، ويسيل خيطُ لعابٍ من طرف فمها، أخبرتها بهذا بقعةٌ رطبة تجدها على وسادتها صباحاً، وأخبرتها كذلك أمّها التي كانت تستيقظ على صوت الصّرير، فتوقظها من نومها، وتقرأ لها المعوّذات بصوتٍ مرتجف.

-3-

– سآكلكِ بعد قليل.

همس في أذن زوجته، وهو يرمق بشهوةٍ ثديها الريّان، سرت قشعريرةٌ لذيذةٌ في جسدها. «عندما ينام الصّغير، سأتبعكَ». قالت مبتسمةً، والطّفل يمصُّ حلمتها بنهم.

في وقتٍ لاحقٍ ليلتها، ارتفعت صيحتها المتألّمة حين عضّ باطن فخذها، لم تكن عضّة عادية كتلك التي يتبادلها الأحبّة أحياناً في لحظاتهم الحميمة، بل عنيفة، فاجأتهما معاً؛ إذْ وجد نفسه ينهش فخذها بشراسة.

«تجاوز الأمر حدّه». فكّرتْ بهذا بقلقٍ بعد أيّام، وهي تشاهد على المرآة العلاماتِ المدموغة هنا وهناك على جسدها، ارتدت قميصاً بأكمامٍ طويلةٍ وياقةٍ عاليةٍ، ثمّ حملتِ الطّفل لتوصله كالعادة إلى منزل أمّها قبل الذهاب إلى وظيفتها.

حين عادت عصراً، كان هو غارقاً بين الملفّات على حاسوبه، ليس فقط ملفّاتِ مقالات الرّأي والقصص التي يوقّعها –خوفاً– منذ سنوات باسمٍ مستعارٍ، بل وملفّاتِ معاملةِ الهجرة التي يتابع مُكرَهاً سيرها المتعثّر منذ شهور، ويُلقِمُها معظمَ وارده ووارد زوجته، يفعل هذا مع أنّه يكره السّفر، ويتمنّى أن تتحسّن الأمور هنا ولو قليلاً، لكنّ هذه البلاد التي أنهكها الخراب، تطرده كلّ يومٍ بشتّى الطّرق، ولا تكفّ عن نصب الفخاخ ورفع الجدران في وجه أحلامه.

حين نام الصّغير في أوّل اللّيل، اندسّت هي في فراشها، سمعتْ وقع خطواته، وهو يغادر مكتبه الصّغير في زاوية الصّالون، فارتجفتْ خوفاً، لم

تكن خائفةً (عليه) كخوفها حين أخبرها أوّل مرّةٍ عن ظلّه، ثمّ حين أخذ فيما بعد يقنعها بميزات السّير على أربع وضرورة تعليم هذه المهارة لطفلهما، ولا خائفةً (منه) كخوفها حين كانت تستيقظ ليلاً على صوتِ صريرِ أسنانٍ وزمجرةٍ خافتةٍ، خوفها الآن صار رعباً، هناك شيءٌ غريب يحدث، ويجب أن يستشيرا أحداً، نوَتْ أن تتحدّث إليه حين يدخل الغرفة، لكنّها سمعت باب البيت يُصفق.

كانت رغبته في الجري ملحّةً، حتّى إنّه لم يجد وقتاً ليخبر زوجته أنّه سيخرج، نزل درَج البناء بصعوبةٍ على قدمَين وبظهرٍ منحنٍ، وما إن قطع صفّ الأبنية، حتّى بدأ يجري على أربع، ملتحفاً العتمة، وبسرعةٍ اكتشف مبتهجاً قدرته على الرّؤية بوضوحٍ في الظّلمة.

جرى بخفّة، استنشق الهواء بشراهة، لكنّ صدره لم ينشرح، بل راح قهرٌ مكتومٌ يتكدّس فيه، القهر الذي اعتاد لسنواتٍ ابتلاعَه بجرعاتٍ يوميّةٍ، صار الآن غضباً يكاد يمزّقه، توقّف فجأةً، ونهش ذراعه بشراسةٍ، الألم كان شديداً، لكنّ إحساس اللّحم الدّافئ الذي اعتُصر تحت أسنانه جعله منتشياً للحظات.

تابع الجري، قرّر أن يصرخ ليُحرّر دفعةً أُخرى من غضبه، صرخ فجفل دهشةً؛ إذْ سمع صرخاته عواءً، وعلى الفور ردّت عليه أصواتُ عواءٍ أُخرى كثيرة قريبة وبعيدة، فتبدّدت وحشته، وراح يعدو أسرع.

***

لم يهتمَّ أحدٌ بإحصاء الحالات الكثيرة، أو توقُّعِ التّطوّرات القادمة، أو تحليل الدّوافع المشترَكة، ومع ذلك فإنّ الحلَّ لم يكن صعباً، أو مكلفاً.

بضعُ مئاتٍ من رؤوس الدّجاج ما تزال تُقطّع كل يوم، تُنقَع بالسّم، ثمّ تُلقى ليلاً في أماكن متفرّقة، الأماكن الكثيرة نفسها التي يرتفع فيها العواء الغاضب فيُقلِقُ بين الحين والآخر ليل المدينة الحالك.

خبزُنا الذي ننجبُه

- «أعيني ولَدَكِ». صاحتِ القابلة العجوز، وهي تُخرج أصابعَها من رحمي مفتوح الفم، راحت تمسّد بدأبٍ أسفل بطني، بينما تقلّصٌ جديدٌ يبزغ من ظهري، ويزنّر حوضي.

بدون سابق تمهيدٍ وجدتُ نفسي وسط هذا المخاض العسير، يحدثُ هذا في بلدتِنا منذ أشهر- بدأ على وجه الدّقّة حين مرّت ثلاثةُ أعوامٍ كاملة على غيابِ رجالِنا الذين ساقوهم إلى الحربِ الأخيرة- تنام إحدانا ببطنٍ خاوٍ مسطّح، وتستيقظ عند منتصفِ اللّيل بحملٍ ناضجٍ، وآلامٍ لا تُحتمَل.

أثار الأمرُ ذعرَنا في البداية، ثمّ قبلناه كما نقبل هنا مع الوقت أشياء أُخرى كثيرة، نعرف أنّنا جميعاً سنمرّ بهذه التّجربة يوماً، وأنّ المسألةَ مسألةُ انتظارٍ فقط، ومع ذلك فإنّ هذه المعرفة لا تخفّف من وطأةِ المفاجأة، ولا تهوّنُ من عُسرِ المخاض.

- «أعيني ولَدَكِ ليخرج، لم يبقَ الكثير». صاحت العجوز بصوتٍ أعلى، وصفعتْ فخذي العاري، كانت آلام الطلق عنيفةً لحظتها، صرختُ بصوتٍ أقرب إلى العواء، ودفعتُ بكلِّ ما تبقى في جسدي من قوّة، فانزلقتْ من

فَرْجي كتلة دافئة، سكَنَ كلّ شيءٍ لبرهة: آلامي، وصوتُ أنفاسِ القابلة، وتمتماتُ أمّي التي كانت قربَ رأسي طوال المخاض تبتهلُ، وتدعو، وتتوسّل.

- «حمداً لله على السلامة». قالت القابلة، وعلا بكاء وليدي، دفعتْه نحو صدري، فتغلغلتْ في أنفي رائحةُ الخبز الطّازجة الّتي تفوح منه، احتجتُ إلى بعض الوقت قبل أن أتجرّأ وأمدَّ يدي المرتجفة لأتحسّسَ جسدَه المدوّر السّاخن الطّري، الذي ما زال ملطّخاً باللّزوجة والدّم.

- «ما أحلاه! انظرا كيف تتوزّع الفقاقيع السّمراء المقرمِشة على وجهه بتناسق». قالت القابلة هذا، وأكّدتْ لنا أنّ صغيري هو الرّغيف الأجمل الذي شهدتْ ولادتَه في بلدتِنا كلّها، لم يعنِ لي هذا المديح شيئاً، لكنّ البِشْرَ ظهر على وجه أمّي، منحتْ بامتنانٍ القابلةَ مبلغاً إضافيّاً، ثمّ فتحتْ باب الغرفة بسعادةٍ، فدخلَ أطفالي، تحلّقوا حولي، وعيونهم الجائعة تتأمّل أخاهم بنهم.

- «لا ترضعيه!». قالتِ القابلة محذّرةً قبل أن تغادر، وكنتُ بالطّبع أعرف أنّهم منعوا الإرضاع منذ أنجبتْ أوّلُ حبلى هنا رغيفاً، أطعْناهم كعادتِنا بدون نقاش، لكنّنا وللحقيقةِ انشغلْنا لبعضِ الوقتِ بالأسئلة السّخيفة، مثل: كيف لنا أن نحبل؟ ممّن؟ ولماذا؟ تهامسْنا بالأسئلة زمناً، ولم نلبث أن صمَتْنا، فالأرغفة هبةٌ منهم، ومن عدمِ المروءةِ أن يسأل المرءُ عن تفاصيلِ الهِبات، ومع ذلك ما تزال بعضُ الأحاديث الخافتة تتردّد هنا وهناك، تزعم أنّه حين يبدأ بطن إحدانا بالتكوّر، وتحبل بين الوقت والآخر، فهذا يعني أنّ رجُلَها لن يعود أبداً، تذكّرتُ هذه الشّائعاتِ فارتعش قلبي،

وطفَرَ الدّمعُ من عينيّ، لكنّني هشّشتُ مخاوفي بعيداً عنّي، وأشغلتُ نفسي بمراقبةِ أطفالي.

لم أتقصّدْ أن أخالفَ قوانينَهم، أو أن أتحدّى سُلطتَهم، بدأ الأمر كلُّه مصادفةً في اللّيلة التّالية لولادتي، استيقظتُ في منتصفِ اللّيل على صوتِ بكاءِ صغيري، ولأنّني كنتُ منهَكةً، فقد ضممْتُه إلى صدري، وبشكلٍ غريزيٍّ قرّبتُ حلمتي منه، تنبّهتُ بعد لحظاتٍ إلى الخطأ الذي ارتكبتُه، لكنّ الحليب كان قد بدأ يسيلُ من ثدييَّ بغزارة، ولأنّ صغيري بدون فم فقد أخذ جسدُه كلّه يغبُّ الحليبَ بشراهةِ إسفنجةٍ صغيرةٍ، رضع ليلتَها حتّى شبع ونام.

أرضعتُه أيضاً في اليومِ التّالي، مفترضةً بسبب سذاجتي، أنّ بضع رضعات صغيرةٍ كلّ يومٍ لن تضر، وفي الحقيقة فقد أفهموني فيما بعد أنّ أمومتي اللّعينة هي الّتي جعلتْني ضعيفة، وأغرتني لأطيلَ عمرَ ابني ولأضمّه إلى صدري أطول وقت ممكن.

أسبوعٌ كامل من الرّضاعة في الخفاء، ولم يزدد حجم صغيري ولو عقدة إصبع، لكنّ وزنَه زاد، صوت بكائِه صار عالياً، وجسده أصبح كتلة عجينيّة، دبقة ثقيلة، لها رائحةٌ زنِخة حامضة، وتشبه وجه جنينٍ آدمي، أدركتُ حينها خطئي، وحاولتُ أن أفعل ما كان يجب فعله منذ البداية حسب تعليماتهم، أعني أن أترك الرغيف ثلاثة أيّام في الشّمس والهواء كي يصبحَ جاهزاً، لكنّني مع صوتِ بكائه المرتفع وكلِّ الحليب في جسده، أدركتُ أنّ الأوان قد فات.

ولأنّ لهم آذاناً وعيوناً كثيرةً، فقد كنتُ على يقينٍ بأنّهم سيعرفون قريباً،

ولهذا خرجتُ بنفسي إليهم، وصلتُ إلى السّاحة وسط المدينة أحملُ ابني بين ذراعيّ، طالبةً مساعدتَهم، وجاهزةً للعقاب الذي أستحقّه.

- انظري ماذا فعلتِ! أرضعتِه فأكسبته بذور ملامح، ومنحْتِه احتمالاتِ حياة، لقد حوّلتِه إلى مسخ.

نهَرَني أحدُهم، وهو يدفعني بغلظةٍ، ويأخذُ صغيري منّي، ناوله لآخر راح يتأمّله بما يشبه الخوف، ثمّ مضى به بعيداً عنّي، بينما عصَبَ ثالثٌ عينيّ، وغلّ يديّ، واقتادني إلى الأسفل.

لا أدري كم استضافوني، فالمكان عندهم مظلمٌ لم أعرف فيه ليلاً من نهار، وحيدة بين أربعة جدران تخبّطتُ باكيةً ملتاعة، ثدياي حجران ثقيلان مؤلمان، وقلبي يأكله القلق على أطفالي الجائعين، ورأسي مسكونٌ بصوت بكاء طفلي، مرّ الوقت ثقيلاً، لكنّني أدركتُ في النّهاية أنّهم محقّون، فالظّلمة والوحدة كانتا جيّدتين من أجلي؛ إذْ يبسَ كلّ شيء: الثّديان، والعينان، والرأس، والقلب، وعندها شعرتُ بالرّاحة.

حين أخرجوني كان أحدُهم يحمل بين ذراعيه شيئاً ملفوفاً بالكامل بقماشٍ أبيض، رافقوني حتّى بيتي، وهناك تأكّدتُ أنّ الشّيء هو صغيري، أبعدوا أطراف القماش ووضعوا الصّغير على الأرض، تحلّقنا حوله نتأمّله بفضول، كان خامداً يابساً كما ينبغي.

تنحنح أحدُهم، ثمّ أومأ لي برأسه فناولتُهم الصّغير، قصفوه بحرصٍ إلى قطعٍ صغيرةٍ شبه متساوية: قطعة لي، قطعة لأمّي؛ أمّا ما تبقّى منه، فقد وزّعوه على إخوته الجائعين.

بسَكينةٍ كنّا نمضغ خبزنا اليابس حين انصرفوا وأغلقوا خلفهم باب البيت بإحكام.

روعة سنبل:

صيدلانيّة سوريّة، مقيمة في دمشق، من مواليد عام 1979.

صدر لها: صيّاد الألسنة (مجموعة قصصيّة) - زوجة تنّين أخضر وحكايات ملوّنة أُخرى (مجموعة قصصيّة)، دمدوم صانعة الغيوم (قصّة مصوّرة للطفولة المبكّرة) - البنت التي حملت بيتها (رواية لليافعين)، حارسة الحكايات (نصٌّ مسرحيٌّ ضمن كتابٍ مشتركٍ بعنوان: مسرحيّات ورشة الكتابة للخشبة 2).

حازتْ عدداً من الجوائز الأدبيّة، منها: جائزة الشارقة للإبداع العربيّ فئة القصّة القصيرة - جائزة شومان لأدب الطفل - جائزة الهيئة العربيّة للمسرح.

